

حكايات من لافونتين

اختارها وترجمها

جبرا إبراهيم جبرا

كتاب الدوحة

حكايات من لافونتين

كتاب الدوحة 89

يُوَزَّع مجّانًا مع العدد (132) من مجلّة «الدوحة» - أكتوبر - 2018

عنوان الكتاب: حكايات من لافونتين
المؤلف: جان دي لافونتين - **ترجمة:** جبرا إبراهيم جبرا

الناشر: وزارة الثّقافة والرياضة - دولة قطر
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية:
الترقيم الدولي (ردمك):

العمل الفَنّي للغلاف والرسوم الداخلية: غوستاف دوريه 1832 - 1883 (فرنسا)
الإخراج والتصميم: القسم الفَنّي - مجلّة الدوحة

حكايات من لافونتين

اختارها وترجمها

جبرا إبراهيم جبرا

الطبعة الأولى 1987 (بغداد)

كتاب الدوحة

لافونتين، وإيسوب وهذه الحكايات

يقول «جان دي لافونتين» (1621 - 1695)، في مقدِّمته لحكاياته، أنه استقى الكثير منها من حكايات «إيسوب». وبما أن الناس يعرفونها من قراءاتهم في الأدب اليوناني القديم، فقد رأى أن يعيد صياغتها شعراً، ليضيف إليها طراوة، وروحاً جديدة، إذ يرى أن الحكاية والقصيدة أختان، في الأصل. وهو لن يفعل أكثر ممّا حاول سقراط أن يفعله، وهو في السجن، في انتظار جرعة السمّ التي حُكِم عليه بها، وذلك حين انتقى حكايات من «إيسوب» رأى فيها الحقّ والحكمة، وراح يقضي أيّامه الأخيرة في نظمها شعراً.

لكن «لافونتين» أراد لحكاياته، في الوقت نفسه، أن تنتعش بلمسات منه تشيع فيها الحيوية، والجدّة والمرح، وهذا- بالضبط- مافعله؛ فهو لم يكتفِ بمجرَّد كتابتها شعراً، بل أضاف جزئيّات

طريفـة، مـن عنـده، إلـى التركيبـة القصصيـة، كمـا أضـاف عشـرات الحكايـات الأخـرى التـي جعـل منهـا وسـيلة لقـول الكثيـر ممّـا أراد قولـه، علـى طريقتـه الخاصّـة، التـي لـم يضاهِـه فيهـا أحـد، ومـلأ الحكايـات المئتيـن والأربعيـن بإشـارات كثيـرة إلـى سياسـات زمانـه، وعـادات مجتمعه فـي عصـر الملك لويـس الرابع عشـر (عصـر موليير، وراسـين)، وكان مـن أبهـى العصـور الأدبيـة والفنّيـة فـي فرنسـا، وقـد صـدّر مجموعتـه الأولـى، بإهـداء شـعري إلـى ولـيّ العهـد، وخاطـب، فـي بعـض الحكايـات اللاحقـة، عـدداً مـن شـخصيات الدولـة البـارزة، والنسـاء المتنفِّـذات، فـي زمانـه.

ظهـرت الحكايـات فـي مجموعـات ثـلاث، فـي اثنـي عشـر جـزءاً، نشـرت المجموعـة الأولـي منهـا عـام (1668)، والثانيـة عـام (1678)، والثالثـة الأخيـرة عـام (1694)، وصـدرت جميعـاً فـي مجلَّـد واحـد فيمـا بعـد. وقـد تعمَّـدتُ أن أختـار، لترجمتـي، بعضـاً مـن حكايـات الأجـزاء الاثنـي عشـر كلّهـا، غيـر أننـي آثـرت التأكيـد علـى الحكايـات التـي اسـتُقِيَ العديـد منهـا مـن كتابـات «إيسـوب»، وتلـك التـي مازالـت تنضـح بالحيويـة التـي أرادهـا لهـا شـاعر كبيـر يحـبّ الحيـاة، ويكـره الغـرور والنفـاق، وهـي التـي بوَّأتـه مكانـة بـارزة بيـن الخالديـن، فـي الأدب الفرنسـي.

يوكِّـد «لافونتيـن»، فـي مطلـع الحكايـة الأولـى، مـن الجزء السـادس، أن الجمـع بيـن التعليـم والمتعـة هـو غايتـه مـن الحكايـة:

«ليست الحكايات مجرَّد ما تبدو عليه؛

أبسط حيوان فيه قد يعلِّمنا. والمغزى وحده لكلينا نملَة.

إنمـا الحكايـة هـي التـي تجعلـه مستسـاغاً لدينـا، فعلـى القصـد فـي

مثلها أن يكون التعليم والمتعة، وإلّا لكان السرد، وحده، أمراً غير ذي بال».

وهو يذهب، في مقدَّمته، إلى أن القدماء كانوا يعدّون حكايات الحكمة، التي تدور حول الحيوانات، من خَلْق وحي إلهيّ، حتى أنهم نسبوا معظمها إلى «سقراط» نفسه، ويقول إن الحقيقة كانت تخاطب البشرية في القدم بالأمثولة؛ وهل الأمثولة إلّا حكاية تجد طريقها إلى القلب، مباشرةً، لأنها مستقاة من كلّ ما أَلِفَه الناس من أمور حياتهم اليومية!؛ لذا فإن أفلاطون جعل لـ«إيسوب» مكاناً مكرَّماً في «جمهوريَّته»، وأوصى أن ينهل الأطفال من حكاياته مع حليب أمَّهاتهم، لأن الفضيلة والحكمة يجب أن يعتادها الإنسان منذ أوَّل نشأته. وقد قال «أرسطو»: إن «إيسوب» لقّن أهالي جزيرة «ساموس» فن السياسة، بحكاياته البارعة.

ولكن، من هو «إيسوب» الذي كان المرجع الأوَّل لشاعرنا، في حكاياته؟

يعتمد «لافونتين»، في السيرة الموجزة التي يكتبها، بعد مقدِّمته، على راهب عاش في القسطنطينية في القرن الرابع عشر للميلاد، يُدعى «مكسيموس بلانوديس»، كتب- باليونانية- تاريخاً لحياة «إيسوب»، لا نعلم مدى الصدق في تفاصيله؛ لأننا لا نملك الشواهد إلّا على القليل جدّاً من الأجزاء التي يرويها.

وخلاصتها أن «إيسوب» عاش في النصف الأوَّل من القرن السادس قبل الميلاد، في مدينة عمورية («آموريوم» في «فريجيا» الواقعة في أواسط آسيا الصغرى). يقول هذا المؤرِّخ إن هذا الرجل الذي حباه الله ذكاءً أذهل أهل زمانه، جعله الله في خلقة من القبح لاتُصدَّق، وأنه وُلِد حرّاً، لكنه جُعِل عبداً رقيقاً يُباع

ويشترى، لسنين طويلة، غير أنه بقي يتشبث بحرِّيَّته، ويتحدّى المهانة والظلم، بشجاعة وقدرة عقلية نادرتَيْن، وله مع الفيلسوف «إكسانتوس»، الذي اشتراه وأدخله في خدمته، مدةً طويلة، في «ساموس»، حكايات كثيرة تدلّ على ما كان يتميَّز به من العقل والحكمة والنكتة والدعابة؛ مما أدّى بمالكه- في النهاية- إلى عتق رقبته.

بعد ذلك بقليل، اتَّفق أن طالبَ «كرويسوس» (ملك لبديا) أهلَ «ساموس» بدفع الجزية، وإلّا هاجمهم ودمَّرهم، ففزع الناس، وارتأت الأكثرية منهم أن يُلبّى طلبُه، غير أن «إيسوب» قال لهم: إن القدر جعل للبشرية طريقين؛ أحدهما طريق الحريّة، وهي وعرة وشائكة في بدايتها، غير أنها جميلة وسارّة بعد ذلك، والأخرى طريق العبودية، وهي سهلة في البداية، ولكنها تؤدِّي إلى الكرب والبؤس فيما بعد؛ وبذلك استنهض همم الأهلين، وجعلهم يردّون رسول «كريسوس» محمَّلاً بالرفض والخيبة.

فهيّأ الملك حملةً للهجوم عليهم، وإذا برسوله يخبره بأنه سيلقى مشقّة كبرى في إخضاعهم، مادام «إيسوب» قائماً بينهم؛ لشدَّة ثقتهم في رأيه وحكمته، فأرسل الملك إليهم من يقول لهم إنهم إذا سلَّموا له «إيسوب»، غادرهم وترك لهم حرِّيّتهم، ورأى زعماؤهم أن ذلك شرط في صالحهم، وأن تسليم «إيسوب» ليس بالثمن الباهض لقاءَ السلام والأمن اللذين سيكونان من نصيبهم. إلّا أن «إيسوب» روى لهم حكاية عن الخراف التي أبرمت معاهدة سلام مع الذئاب، وسلَّمت لها كلابها كرهائن، فلمّا بقي الخراف بدون مَنْ يحرسها ويدافع عنها، هاجمتها الذئاب، و- بسهولة- قضت

عليها[1]. وأدرك أهل الجزيرة مغزى الحكاية، فغيَّروا قرارهم، و- مع ذلك- عزم «إيسوب» على الذهاب إلى «كرويسوس» بنفسه، مؤكِّداً لمواطنيه أنه يستطيع أن يخدم مصالحهم، وهو قرب الملك، أكثر ممّا لو بقي بينهم في «ساموس». وعندما رآه «كرويسوس» أدهشه أن رجلاً عاديّاً مثله يستطيع أن يعيقه عن اقتحام الجزيرة، وصاح: «أهذا هو الذي جعل الأهلين يقاومون إرادتي؟!»، فألقى «إيسوب» نفسه على قدميه، وقال: «كان هناك رجل يمسك بالجراد ويقتله، وإذا زيز يقع في يده، فكاد يسحقه عندما خاطبه قائلاً: «أنا لا آكل سنابلك، ولا أُلحِق بك أيّ أذى. لن تجد فيَّ سوي صوتي، وصوتي لا يؤذي أيّ إنسان! أيّها الملك العظيم، ما أنا إلّا مثل ذلك، ليس لديَّ إلّا صوتي، أطلقته يوماً، في إساءة إليك».

فأُعجب الملك بقوله، وعفا عنه، وترك أهل «ساموس» في سلام. وفي هذه الفترة التي قضاها «إيسوب» عند «كرويسوس» في «ليديا»، ألِّفَ حكاياته، وتركها في عهدته يوم غادره عائداً إلى «ساموس»، حيث استقبله الناس بترحاب كبير، بيدَ أن الأسفار جعلت تطيب له، فراح يتنقَّل من بلد إلى بلد، لمناقشة الفلاسفة والحكماء.

وفي أثناء ترحاله، وصل إلى مدينة بابل. هناك، تلقاه الملك بسرور، وضمَّه إلى بلاطه، وقد كان من عادات ملوك ذلك الزمن أن يتطارحوا المسائل الصعبة بالمراسلة، وكان لديهم طرق لمكافأة مَنْ يفوز بالحلّ الصحيح. وبمساعدة «إيسوب»، كان ملك بابل، دائماً، هو الفائز، وعلا قدره بين أقرانه الملوك كطارح للأحاجي

(1) أنظر حكاية «الذئاب والخراف» في هذا الكتاب.

والألغاز ومفسِّر لها، وجرت مطارحات عدّة بينه وبين فرعون مصر، لعب فيها «إيسوب» دوراً بارزاً.

ولمّا اكتشف فرعون ذلك أعجب به، واستضافه. وفي بلاطه التقى حكماء مصر الكبار. وعند عودته إلى بابل، مرّةً أخرى، استقبله الملك والناس بفرح عظيم، على ضفاف الفرات، وأقاموا له تمثالاً؛ إكراماً لعلمه وقدره. بعد ذلك، اشتدَّ به الحنين إلى بلاده اليونان، وبعد أن يتخلَّص الملك منه وعداً بالرجوع إلى بابل، مرّةً أخرى، لقضاء ما تبقّى له من عمر فيها، سافر إلى أثينا التي باتت تردِّد حكاياته، ومنها توجَّه إلى مدينة «دلفي»، حيث تجمهر الأهلون لرؤيته، وسماعه.

غير أنهم لم يحفلوا به، بالقدر الذي كان هو أهلاً له، وكان الملك «كرويسوس» قد طلب إليه أن يوزِّع بينهم مقداراً من المال، بالتساوي، فاختلفوا فيما بينهم على الأمر، وتشاجروا قبل أن يشرع في تنفيذ مهمَّته، فرفض أن يوزِّع المال، وقال فيهم حكاية الجسم الذي يُرى، من بعيد، عائماً في البحر، فيحسبه الناس شيئاً كبيراً ذا روعة وأهمِّية؛ فإذا هو، عندما تقذفه الأمواج إليهم، مجرَّد أحطاب وأسلاب تافهة. فازدادت حدّة الخلاف فيما بينهم، واشتدّ بهم الغضب اندفعوا إليه، وأمسكوا به، وألقوا به من فوق صخرة شاهقة، فلقيَ، بذلك، مصرعه.

وتروي المصادر الإغريقية أن الآلهة غضبت على الدلفيّين؛ لما اقترفوا من جريمة نكراء، فأنزلت بهم طاعوناً إثر آخر، حتى أعلنوا توبتهم واستعدادهم لدفع ديّة كبيرة عن مقتله، لمن يطلبها، وأقاموا هرماً في «دلفي»؛ إحياءً لذكراه، ولم تكن الآلهة وحدها التي غضبت على هذه الجريمة، فقد سخط الشعب اليوناني، برمَّته،

لمصـرع حكيمهـم، وأرسـلوا مَـن حَقَّـق فـي الأمـر مع أهـل المدينـة، وفرضـوا عليهـم عقابـاً جماعيـاً، بقـي جـزءاً مـن تأريـخ المدينـة.

هـذه بعـض التفاصيـل التـي تواتـرت، فـي العصـور القديمـة، عـن «إيسـوب» وحكاياتـه، دون أن يسـتطيع أحـد التثبُّـت مـن دقَّتهـا التاريخيـة. ولئـن يعتمـد «لافونتيـن» علـى «بلانوديـس» قائـلاً إنـه قريـب العهـد مـن «إيسـوب» فإنـه يغفـل عـن تذكيرنـا بـأن «قـرب العهـد» هـذا أَمَـدُه ألـف وثمانمئـة سـنة، وفـي هـذه الحقبـة الطويلـة ماعـت حقائـق كبيـرة، أو تشـوَّهت، أو ضاعـت، وحلَّـت محلَّهـا تخرُّصـات، يسـتحيل تمحيصهـا.

يـكاد يكـون، فـي حكـم المؤكَّـد، أن «إيسـوب» شـخص تأريخـي، وهيرودوتـس يذكـره فـي تاريخـه، ويـورد بعـض المعلومـات الأساسـية عـن حياتـه، وكانـت لـه حكايـات معروفـة واسـعة الشـعبية فـي «أثينـا»، زمـن سـقراط، الـذي وُلِـد بعـد «إيسـوب» بحوالـي مئـة وعشـرين سـنة (عـام 469 ق.م)، و«أفلاطـون» هـو الـذي يـروي كيـف أن «سـقرط» شـغل نفسـه بنظـم بعـض هـذه الحكايـات شـعراً، قبيـل إعدامـه، وقـد أقـام مواطنـو «أثينـا» تمثـالاً لـه. وثمّـة حكايـات عديـدة يمكـن الرجـوع بهـا إلـى أصلهـا عنـد «إيسـوب»، وكان أوَّل مـن جمـع حكاياتـه هـو «ديميتريـوس»، مـن «فاليـروم»، فـي القـرن الرابـع قبـل الميـلاد، ومجموعتـه النثريـة هـي التـي اعتمدهـا، منـذ ذلـك الحيـن.

غيـر أن الدارسـين يعتقـدون أن الكثيـر ممّـا نُسِـب إلـى «إيسـوب»، مـن حكايـات، علـى مَرّ الزمـن، جـاء مـن مصـادر أخـرى. والـذي يلفـت النظـر هـو اقتـران اسـمه ببابـل، حيـث حَظِـي باحتـرام كبيـر، وتواتـرت عنـه أقاصيـص كثيـرة، يـروي بعضهـا «بلانوديـس»، وعـن الفتـرة التـي قضاهـا فـي بابـل، والتـي يخطـئ الكاتـب البيزنطـي المتأخِّـر

بتسمية ملكها «لوقيروس»، هي- في الواقع- فترة حكمة الملك «نبوخذنصر»، الذي حكم من (605) إلى (562 ق.م)، وتلك التي حكم فيها خلفاؤه، وبخاصّة نابونائيد، والمنتهية بعام (539 ق.م)، حين اجتاح الفرس أعظم مدينة عرفها التاريخ حتى ذلك الوقت؛ المدينة التي التقت فيها معارف الإنسانية وإبداعاتها الفكرية، والعمرانية جميعاً.

وإذا عرفنا التماسّ الذي كان قائماً بين بابل «نبوخذ نصر» (ومَنْ سبقه) و«فريجيا»، والتحالف الذي أقامه ملوك «ليديا» مع ملوك وادي الرافدين الأقوياء دفاعاً عن أنفسهم ضدّ الفرس، الذين كان دأبهم الاتِّجاه بغزواتهم البربرية غرباً حتى بلغوا بلاد اليونان، وجدنا أن صلة «إيسوب» بهذه البلاد الثلاثة توحي بعلاقة وثيقة (مادِّيّة، وفكريّة)، عرفها «إيسوب» ببابل نفسها؛ الأمر الذي يبعثنا على الظنّ أن العديد من حكاياته كان مصدرها، في الواقع، التراكم المعرفي البابلي نفسه؛ أي أنها تعود، في أصولها، إلى الأداب الرافدينية ومأثوراتها، في فترتها البابلية المتأخِّرة. وما من ريب في أنها، وقصصاً مماثلة لها، انتشرت، فيما بعد، شرقاً، أيضاً، حتى بلغت الهند، وتطوَّرت. وبعد قرون، عاد الكثير منها- بشكل أو بآخر- إلى العراق، من جديد -بخاصّة- في كتابه «كليلة ودمنة»[1] الذي رأى أن ابن المقفع وضعه بالعربية، مستقياً حكاياته من الخزين القصصي المتوارث محلِّياً، والمتَّصل من الهند إلى فارس إلى العراق إلى اليونان، وذلك بفعل الطاقة الأصلية التي

(1) من المهم أن نلاحظ أن «لافونتين»، بدءاً بمجموعته الثانية، يعترف، في توطئته لها، باستقائه من حكايات «الحكيم الهندي بيديا»، وذلك من ترجمة فرنسية مختصرة لكتاب «كليلة ودمنة» ظهرت عام (1664). ومن الطريف أن هذا الكتاب كان قد ترجمه، من الإيطالية إلى الإنكليزية، «توماس بورث»، عام 1570، الذي اعتمد على ترجماته.

انبثقت قبل ذلك بأكثر من ألف سنة، في آداب وادي الرافدين، وكان الجاحظ (في كتابه «البيان والتبين») من أوائل مَنْ أدركوا أن ابن المقفَّع كان له، من البراعة، ما يجعله أن «يصنع» و«يولّد» الرسائل والسِيَر، ويزعم أنه نقلها عن لغات أخرى.

وما يقوله المؤلِّف البيزنطي «بلانوديس»، من أن «إيسوب» ألّفَ حكاياته، وهو في ظلّ «كرويسوس»، ملك «ليديا»، وتركها في عهدته، ثم انتقل إلى بابل، قد يكون الصحيح فيه أن «إيسوب» أودعَ حكاياته لدى الملك الليدي، بعد رجوعه من بابل، وليس قبل ذهابه إليها؛ فهو من بابل، وقد استقى الكثير من التراث العراقي القديم، وعاد إلى العالم اليوناني بذخيرة جديدة عليهم، وتختلف، بقصص حيواناتها، كلّ الاختلاف عن أساطير الآلهة والبشر السائدة فيما بينهم؛ فكانت- بذلك- إضافة كبرى إلى أداب الإنسانية الباقية.

رجع «لافونتين» إلى حكايات «إيسوب»، أو تلك المنسوبة إليه، وعزم على إعادة روايتها شعراً، وعالج- كما يقول- ما يقارب نصف عددها، وقد رجع- أيضاً- إلى الترجمة اللاتينية الشعرية التي كان قد قام بها، في القرن الأوَّل للميلاد، شاعرٌ من «مقدونيا» يدعى «فيدروس»، الذي كان هو- أيضاً، في الأصل- عبداً كصاحب الحكايات، حرَّره الإمبراطور الروماني «أغسطس»، وجعله يعيش في بلاطه، وكانت ترجمته شائعة في أوروبا، في القرون الوسطى.

وأضاف «لافونتين» إلى هذه الحكايات الكثير من مصادر عربية، بخاصّة، من كتاب «كليلة ودمنة» قائلاً، في توطئته للمجموعة الثانية، إن «بيديا» الفيلسوف الذي يروي حكايات «كليلة ودمنة»،

ليس مديناً بشيء لـ«إيسوب». لشدّة أصالته. ثم يستدرك ليقول، وكأنه يؤيِّد ما نذهب إليه من أن أصل الحكاية هو حضارة بلاد العرب في أقدم أشكالها: «هذا إذا لم يكن «بيديا» و«إيسوب»، و«لقمان الحكيم» هم- جميعاً- الكاتب نفسه مدعُوّاً بأسماء ثلاثة.. وقد اعتمد، كذلك، في بعض الحكايات، على كتّاب آخرين، وعلى ما كان من مأثورات المجتمع الفرنسي (حيث تكون شخوص القصّة- في الأغلب- بشراً، لا حيوانات)، وسمح لنفسه، في هذه الأحوال كلّها، بالتصرُّف بالمحتوى والأسلوب، على نحو جعل للحكايات جوّاً فرنسياً، وأضفى عليها من شاعريَّته وبيانه ودعابته، وكذلك من حسّه السياسي، والاجتماعي، لأحداث وعادات عصره؛ ما جعل لها مذاقاً خاصّاً، كثيراً ما يصعب نقله، حتى إلى اللغات الأوروبية الأخرى.

وهو، في واقع الأمر، عَبْر ما يزيد على ربع قرن من الزمن، قضاه في نظم حكاياته تباعاً، لم يترك ناحية من نواحي الحضارة الفرنسية في عصره لم يُشِرْ إليها، أو يبوح بها، بهذه الصور المركَّزة؛ فتحدَّث عن الطغيان، واللامساواة، والقضاء غير العادل، والتباغض، والدجل، والنفاق، وتفاهة المقلّدين والأدعياء، في الأدب والفنّ، ومن خلالها عَبَّر- أيضاً، كأيّ شعر كبير- عن حقائق الحياة الخالدة؛ الحب، والخير، والسعادة، والشرّ، والشقاء، والموت. وحمله تيّار الحكايات سنيناً طويلة، جاعلاً منها وعاءً لحساسيَّته الفذّة ونقداته اللاذعة؛ ذلك إلى جانب أعمال عديدة أخرى، من أهمّها حكايات الغزلية الشعرية المعروفة بعنوان «أقاصيص» التي صدرت عام (1665)، أي قبل صدور المجموعة الأولى، من هذه الحكايات، بثلاث سنوات.

واحتفظ الشاعر بالصبغة القديمة (إلّا فيما ندر) في استخلاص الحكمة، بوضع «المغزى» في النهاية، بشكل صريح؛ وهي طريقة «إيسوب» وغيره من القدامى، لكن «لافونتين» يضع «المغزى»، أحياناً، في مطلع الحكاية؛ تنويعاً للسرد.

في ترجمتي لما اخترت من حكايات، حاولت أن أجمع بين سلاسة السرد ووضوح اللغة، مع دقّة الصورة التي برع «لافونتين» في رسمها؛ مؤملّاً، بذلك، أن يقرأها أو يستمتع بها القرّاء أو السامعون من سنّ الخامسة حتى الخامسة والتسعين؛ وهو ما أراده لها صاحب الكتاب.

ولن يزعم مترجم أن بإمكانه أن يضاهي الإيجاز والإيقاع البارعين اللذين يتّصف بهما الأصل. غير أنني أرجو- بما اخترته من أسلوب يقارب الشعر الحرّ- أني نقلت الكثير ممّا في الأصل من رهافة، وفكاهة، ويُسْر على القلب والأذن معاً.

جبرا إبراهيم جبرا

رُتِّبت الحكايات المختارة، في هذا الكتاب، وفق تسلسلها في النصّ الأصلي وكان الاعتماد في هذه الترجمة على الترجمة الشعرية الإنجليزية، التي قام بها «إدوارد مارش» (1933)، والنصّ الفرنسي للحكايات، طبعة دار «SACELP» (باريس، 1981)، وهي المزيَّنة بتخطيطات للفنّان الفرنسي «غوستاف دوريه» (1832 - 1883).

الزيز والنملة

راح الزيزُ طوالَ الصيف

يزقزقُ ويغنّي،

ولمّا داهَمَهُ الشتاء

لم يلقَ لقمةً يأكلها؛

فهو، لإهماله،

لم يختزنْ في بيته

ذبابةً أو شعيرة!

فذهب إلى جارته

السيِّدة نملة، يقرعُ بابها

ويشكو لها سوءَ حاله،

ويستجدي حَبّةً أو حَبَّتَيْن

يقتات بهما حتى مَقْدمِ الربيع

وقال: «ثقي، يا نملةً أمينَهْ،

من أنني سأدفع الدَّيْنَ

قبل مطلعِ آب،

سأدفع المبلغ مع الفائدة».

ولكنّ النملة، من دأبها

ألّا تسرعَ في مدّ أحدٍ بالقروض،

فقالت: «قل لي،

كيف قضيت أيّام الصيف الطويلة؟

قال: «في الليل، وفي النهار، سيِّدتي،

لكلّ من جاءني، كنتُ أغنّي».

قالت: «أحقّاً كنت تغنّي؟

أَفْرَحتني والله جدّاً.

طيِّب! اذهبِ الآن، وارقصْ!».

الغراب والثعلب

جَثَم الغرابُ على غُصّنِ سنْديانَهْ

وبمنقاره قُرصٌ من الجُبن.

نَشَقَ الثعلبُ الرائحة الزكية

فوجَّه إليه معسولَ الكلامِ بقوله:

«يا أمير الغربان، في هذه الأصقاع،

لم نرَ- قطَّ - وجهاً أجملَ من محّياكْ.

فإن كان صوتُك في التغريد يضاهي

حسْنَ وجهك، ولو بعضهُ،

لقلت إنك العنقاءُ في غابنا هذا!»

سُرَّ الغرابُ لذلك القول، وازدهى،

وقّرر الكشفَ عن روعةِ صوته،

وفتح منقاره، وفسقطت الجبنة منه،

والتقطها الثعلبُ على الفور،

وقال له: «اعلم يا سيِّدي،

إن المتملِّقين يعيشون على الذين

يبلعون مديحهم.

وليس قرصُ الجبنِ بالثمن الباهظ

لقاء نصيحةٍ قيّمةٍ كهذهْ...»

وخجل الغرابُ من وقوعه فريسة سهلة للثعلب

وأقسمَ، ولو متأخِّراً، أنه لن يُلدَغ منه مرَّتَيْنْ

الضفدعة والثور

رأت ضفدعة ثوراً

وغارت من حجمه الرائع،

وهي التي، بطولها وعرضها،

لا تكبر حجم البيضة،

فراحت تتمدَّدُ، وتَجّهَدُ، وتنفُخُ نفسها

لكي تضاهي أبعادَ هذا الحيوان،

وتقولُ لجارتها:

«انظري إليّ، يا أختاه،

هل كَبُرْتُ؟ أهذا يكفي؟»

- لا، استمرّي.»

- إذن، هذا؟»

- «بعدُ، بعدُ!»

- «أهكذا؟»

- «المزيدَ، بعدُ!»

وكانت نتيجة التمدُّدِ والتمطّي

أنَّ المخلوقة الصغيرة.. انفجرت!

ما أملأً العالَمَ بأغبياء مثلها!

كلّ ساكن في المدينة يريدُ قصراً كقصر الأمير،

وكلُّ أميرٍ صغير يريد أن يكون له سُفراء،

وكلُّ سيِّدٍ يريد حشّداً من الخدَمْ.

الذئب والكلب

ضَمُر الذئب حتى بات جلداً وعظماً؛

لبراعة الكلاب في إبعاده عن الغنم،

فالتقى يوماً كلباً مربرباً

نظيفاً، باديَ السمنةِ والعافيَهْ،

فقال: «جاءني الحظّ! فلأمزِّقه عضواً عضوا!»

ولكنه، حين أعاد فيه النظر،

خشيَ بأسه وأنيابه الماضيَهْ،

فابتسم له، وتقرَّب منه،

وامتدح شكله وقوامَهُ،

فأجاب الكلب: لك، يا سيّدي،

أن تكون في العافية التي أنا فيها؛

اترِك الأحراشَ هذه، التي

تتضوَّر فيها جوعاً عبثاً: تصوَّر،

لا وجبات منتظَمة فيها، ولا نار تأنس إليها،

ولا كوخ يقيك الحرَّ والبرد؛

حيث الصراع لا ينتهي من أجل خبزك اليومي!

تعال معي، أضعكَ في مكان

تحصل فيه على نصيبك من طيِّبات الدنيا».

فسأله الذئب «وماذا تكون واجباتي؟»

قال «بسيطة! تنهر المتسوِّلين،

والمشوَّهين، وتداري حالات صاحبك،

وتؤنس أفراد العائلَهْ.

أمّا الأجور- فبقايا ألّذ الأطعمَهْ،

وعظامُ الدجاج والحمام،

وطبطبة على الظهر، باستمرار!»

ورأى الذئب مستقبله مليئاً بالنعم،

حتى امتلأت عيناه بدموع التوق إليه.

ولمّا سارا معاً، لحظ الذئب

أثَرَ حَكٍّ حول عنق الكلب،

فسأله: «ما هذا؟»

قال الكلب: «لا شيء يُذكر»

- «ولكنه ماذا؟»

- «ياقة الجلد التي تُربط بها سلسلتي،

تركت هذا الأثر البسيط على عنقي»

«سلسلتك؟» صاح الذئب.

«إذن، لست حرّاً في الرواح والمجيء؟»

قال الكلب: «أحياناً. ولكن، ما همَّ!»

«صحيح؟» قال الذئب الذي قد هدّه الجوع،

وأردف: «إني أرفض ذلك.

قد تكون أسمن مني، ولكني

أوثر حرِّية إرادتي الحلوَهْ

على لذائذ أطباقك كلِّها...»

وانطلق راكضاً، ولعلَّه مازال يركض،

مؤكِّداً على حرّيَّتِهْ.



الذئب والحمل

لِلقوَّة منطقُها الغاشم،

كما سنرى من هذه الحكاية:

غدا حَمَلٌ، ذات صباح،

إلى الضفّة، من جدول

صافي المياهِ ليشربْ.

وكان هنالك ذئبٌ يتجوَّل

مغامراً في طلب ما يأكلُهْ.

جاء إلى الجدول، وصاح مغضباً:

«تعجبني- والله- صفاقتك؛

تعكّرُ مائي، ولا تخجل!

عقابُكَ على هذه الفِعلةِ عندي!»

فرَجاهُ الحَمَل قائلاً:

«غضبُك، يا مولاي،

ليس في محلّه.

فكّرْ لحظةً واحدةً، تجدْ أني

أشربُ على بُعْد عشرين خطوةٍ

إلى الأسفلِ من مكانك،

ولذا يستحيلُ عليّ أن أعكّرَ

جُرْعةً مما أنت تشرَبْ».

ردّ الذئبُ مزمجراً:

«بل أنت تعكّر مائي!

ثم إنك أنت الذي

تحدّثت بالسوء عنّي،

في شهر تمّوز المنصرمْ!»

وجاء الجواب: «وأنّى لي ذلك

ولم أكن، عندئذ، قد وُلدت؟

أنا لم أُفطَمْ، بعدُ، حتى اليوم».

فقال الذئب: «إن لم تكن أنت،

فأخوك هو الذي فعَلْ».

أجاب الحَمَل: «لا أخا لي، يا سيِّدي».

«إذن!» صاح الذئب، «ففردٌ آخرُ

من عشيرتك الكريهَهْ؛

فالكلُّ يلغط بالأمر حولي،

وما عُدْتُ أطيق كلام الذمِّ هذا

من كلّ خروف وحَمْلِ،

من كلّ كلبٍ، وكلِّ راعٍ في الحقولْ.

لقد آن لي أن أنفِّذَ انتقامي».

وأطبق عليه بأنيابه، وحَمَلَهُ

إلى الغابة القريبَهْ.

ودون الرجوع إلى شاهدِ أو محكمة،

وبكلّ شراسةٍ، الْتهَمَهْ.



الموت والحطَّاب

كان ما كان ..

كان حطابٌ عجوز

ظهرُه انحنى بوِقْرٍ من الأحطاب والسنين،

يكِدّ في الدرب مهزوزَ الخُطى،

يلهث ويئنّ، ليبلغ كوخاً له، سوَّدَهُ الدخانْ.

أنهكه الجهد والألم، فحَطٍّ عنه، لحظةً،

بالةَ الحطب، ليفكّر في حاله وبلواهْ:

هل ذاق للمتعة طعماً، منذ أن ولدته أمُّهْ؟

هل رأت الدنيا مَنْ هو أتعس منه؟:

يومٌ لا خبزَ فيه يتكرَّر، وآخرُ لا راحة فيهْ.

زوجته من ناحية، أولاده من ناحيَهْ،

الشرطة من كلِّ ناحيَهْ،

للعمل من غير أجر يُسخَّر،

وبالديون، دوماً، يُحَمَّلْ،

والضرائب عنوةً تُبتَزّ منه للمَلكْ.

صورةٌ كاملة لحياة، لم يباركها خالقها!

فاستغاث صائحاً: «أيُّها الموت!»

فإذا الموت يأتيه في الحال، ويسأله:

«ما الذي ينقصك يا شيخْ؟»

فقال: «وددتُّ لو... وددت لو

تعينني برفع هذه الأحطاب إلى ظهري...»

للموت أن يريحنا من همومنا،

ولكننا لا نروم إلا البقاء هنا،

ولسان حالنا يقول:

«الشقاء صعبٌ، ولكنه... خير من الموتْ».

السنديانة والقصبة

قالت السنديانة، يوماً، للقصبة:

«لَشَدّ ما ظلمتك الطبيعة!

لو حطّ عليك الحسّون لانحنيت،

وأرقّ الهواء الذي، بعبوره،

يغضِّن أمواه الغديرْ

يطاطئ رأسك، ويرنِّحك.

أمّا أنا، فكالطودِ أرفع هامتي،

ولا أتحدّى لهيب الشمس فقط،

بل اتحدَّى الأعاصير كذلك.

وما يبدو لك كالعاصفة،

إن هو لي إلّا كالنسيم.

لو أنك أقمت في الظلال التي

تُلقِها فروعيَ الخضراء، في دائرة فسيحة،

لكنتِ أقلَّ بؤساً وعرضةً للحيف،

لأنني، عندها، سأدفع عنك وأحميك.

غير أنك وُلدتِ خارج نطاقيَ الأمين

على ضفافِ مياه خضعتْ لسطوة الريحْ

ما أقسى ما تعاملك الطبيعة!».

فقالت القصبة: «أشكر لك

عطفك عليّ، ولطفك الجمّ.

ولكن، لا تقلقي.

فخوفي من الرياح أقلُّ من خوفك بكثير.

إني أنحني، ولا أنكسر.

لقد صمدتِ أنتِ، حتى هذه الساعة،

لجبروتها الرهيب، ولكن العبرة بالنتيجَهْ».

ما كادت القصبة تفرغ من كلامها، حتى

جاء من حافّة الأفق البعيد، بسرعة عنيفة،

أهْوَلُ ما تطلقه أصقاع الشمال

من رحمها، من عصف وزمهرير.

صمدت الشجرة زمناً،

وانحنت القصبة انحناءةً عميقَهْ.

وفي النهاية، أطلقت الريحُ أقصى قواها،

وكرَّرت الهجوم على السنديانة،

حتى اقتُلِعتْ، من الأرض، تلك التي

تفاخرت بأنها تتحدّى الشمس برأسها،

وتضرب جذورها في أعماق الصخر.

أمّا القصبة، فبقيت مكانها، سالمَهْ.


G. Doré
BERTRAND Sc.

اجتماع الفئران

كان ثمّة هرٌّ يُسَمّى أبا المصائب،

وهو غضبٌ على الأعداء، يرسلهم

إلى العالم الآخر، كلَّ يوم، بالعشرات، حتى

كادت الفئران أن تنقرض بين يديه.

والتي سَلِمتْ من شرِّه، كانت ترجف في الجحور،

عاجزة عن بلوغ شيء من الطعام تسدّ به الرمق.

وتقول: «هذا ليس هرّاً؛ إنه إبليس اللعين!»

ذات ليلة، كان أبو المصائب على موعد

مع حبيبته، على سطح الدار، في ضوء القمر،

وفيما هما مشغولان، عن الدنيا، بالغزل،

اجتمعت بقايا الفئران في مجلس الجماعة،

لبحث الأزمة من شتّى أوجهها.

وعندها، نطق فأر شيخ،

معروف بالرأي والفصاحة، قائلاً

بأن الحلّ الأمثل لمشكلتها هذه

هو أن يعلَّقَ، حول عنق أبي المصائب،

جرسٌ، تسمعه الفئران حالما

يتحرَّك الهرُّ في بدء جولته،

فيُخلدُ كلّ فار إلى جحره مختفيا

إلى أن يبتعدْ، ثم أضاف:

«وليس هناك، في رأيي،

أيُّ طريق أخرى للنجاة...

هل نصوّت على اقتراحي؟»

وكانت نتيجة التصويت اِتّفاقاً، بالإجماع،

على تبنّي الاقتراحْ.

ولكن، عندما سأل الشيخ:

«من يعلّق الجرس؟» ارتفعت الأصوات

من كلِّ صوب... هذا يقول «لا أنا،

أرجوكم!»

وذاك يقول: «أنا مريض، صدقوني»

وآخر يزعم: «أنا لست سريع الركض،

يا الجماعة».

ورابع يعلن: «عيناي لا تريان بعيداً»..

وهكذا.

وانفرط عقد الاجتماع، على غير ما نتيجَهْ!

أَلسْنا، كلّ يوم، نرى مشاهد من هذا النوع،

كلّما اجتمع أناسٌ لبحث أزماتهم المستعصيَهْ؟

فإذا طلبت الرأي، انهالت عليك الأفكار

والخطط،

وحين تطلب التنفيذ، لا تجد أحداً حولك

يتحرَّك!.


F.C.

الثوران والضفدعة

تنازل ثوران في مبارزةٍ،

يحظى الفائز فيها ببقرة شابَّة،

والسيادة على الحقل بأكملِهْ.

وتنهدت ضفدعة كانت تتفرَّج على النزال،

فقالت لها جارتها: «ما بك، يا هذه؟»

أجابت: «ألا ترين معي النتيجة؟:

إذا ما انتهت المبارزة، سيُنفى الخاسرُ

من مرجه الأخضر، ويأتي إلينا

ليتحكَّم بالأقصاب التي في مستنقعنا،

ويدوس علينا بأظلافه، ليسحقنا

في طين القاع، ضفدعاً بعد ضفدع!

ولن يكون مَهرُ البقرة العروس، في النهاية،

إلّا لحمنا ودمنا، نحن المساكين».

وتحقَّق خوفها الذي توقَّعته؛

لقد انسحب الثور المهزوم، ليخفي

عارَ هزيمته، إلى موطن الضفادع الآمنة،

وراح يسحقها عشراً عشراً في كلِّ ساعَهْ:

مغبّة حماقات العظماء.

الأسد والبعوضة

«إليك عني، يا حشرةً حقيرة،

يا حثالة المخلوقات جميعاً!»

هكذا خاطب الأسد، يوماً، البعوضة

فجاء ردُّها عليه، في الحال،

إذ قالت: «أتحسبُ أن اسمَكَ الملكيَّ

سيجعلني أرجف خوفاً،

من الرأس حتى القدم؟

فالثور الذي يربو عليك بحجمه،

أسوقه سوقاً حيثما أريدْ!

ولم تتمهَّلْ لحظةً، وصوَّتت نفيرها،

كأنها الفارس والبوقيُّ معاً،

وراحت تئزّ، وهي تدوِّر الدوائر فوق رأسه

تتحيَّنُ فرصتها، ثم انقضَّت عليه،

ولدغته في عنقه...

فجُنَّ الأسد العظيم،

واشتعلت عيناه بالغضب،

وأطلقَ زئيراً، ارتعشت له

أوصال جيرانه، واختبأوا

في الأوكار والجحور،

وعمّ الرعبّ أرجاء الغابة كلّها؛

وما السبب إلّا بعوضة صغيرَهْ!

وراحت البعوضة العفريتة

تندسّ كالشيطانة، في كلّ عضوٍ

معرَّض في الليث الهصور

فهي مرّةً تخرق بوزه، ومرّةً قدمه،

ومرّةً تتوغَّل في أعماق منخريه...

وطغى هياج الأسد، وأزبد شِدقاه،

والمعذِّبة الماكرة تضحك منه

وهو يعمل كامل عدَّته، من ناب ومخلب

للشُّرب من دمها، عبثاً!

أدمى الملك بالحَكّ جنبيه،

وراح يخبط بالذيل ردفيه،

ويصارع الهواء المحيط به،

إلى أن خارت قواه،

وأنهكه السُّخط والصياح،

وتهاوى على الأرض أخيراً

عاجزاً عن كلّ حراك.

وطارت البعوضة المظفَّرة بعيدة عنه

في هالة من المجد،

ونفيرها الذي أعلن، في البدء، تحدِّيها

أعلن الآن انتصارَها.

ولكنها إن حلّقت، هنا وهناك،

لتُسمعَ الجميعَ أنباءها،

اصطدمت بشبكة نسجَتْها العنكبوت،

وسقطت فريسة فيها...

في هذه الحكاية درسان:

من الغباء أن تحكم على الخصم،

قياساً على حجمه،

والمرء قد ينجو من أنياب خطر عظيم

ليلقى مصرعه في عارض... حقيرْ.

الأسد والفأر
و الحمامة والنملة

اجعل- إن استطعت- العالم كلَّه

مديناً لك، فحتى أصغرُ المخلوقات

قد يفيدك في يوم، لا تتوقَّعُهْ.

وعندي قصَّتان تثبتان، بمغزاهما،

صحَّة ما أذهب إليه:

حَفَرَ فأر له ثقباً، يخرج منه

وإذا هو يفاجَأ بالوقوع

بين مخالب الأسد.

ولمّا كان الأسد مَلِكاً،

فقد أبدى رأفةً بالفأر المرتعب،

وأطلق سراحَهْ.

وهذه الرحمة، منه، لم تذهب سُدًى.

(ولسوف تتساءل: «وهل يعقل

أن يحتاجَ الأسد إلى مساعدة

من فأر؟) ولكن هذا ما حدث!

ففي ذات صباح، والملك يخرج من الغاب،

وقع في شبكة صيّاد،

فزأر، وجأر، وتخبَّط- عبثاً.

رآه الفأر، فهرع إليه،

وراح يقرضُ حبال الشبكة

على رِسْلَيْه، هنا وهناك،

إلى أن تقطِّعت وتهافتت-

لأن الصبر والتأني قد يفلحان.

وخرج الأسد طليقاً إلى شأن،

شاكراً للفأر صنيعَهْ.

وعندي هذه الحكاية، أيضاً،

عن مخلوقين أصغر من الفأر والأسد:

كانت حمامة في حرش

قد حطّت على ضفّة جدولٍ

لتشرب من مائِهِ النمير،

فرأت نملة تزلق، وتنقلب،

وتقع في الماء.

وكافحت الحشرة المسكينة

في ذلك الخضمّ العاتي

لتعود إلى الضفّة الأمينة،

والحمامة الوديعة ترقبها،

فمدَّت إليها، بمنقارها، ورقة عشب طويلة

فوق السيل المندفع،

فأوجدت للنملة جسراً

عبرت عليه، ولو بمشقَّة،

وبلغت الأرض بسلامْ.

وجاء قرويٌّ، حافياً، إلى المكان،

وبيده القوس والنشّابْ.

وحين رأى الحمامة، قال:

«سأجعل منها طعاماً لغدائي، اليوم!»

وسال لعابه، وهو يشدّ القوس،

غير أن النملة قرصته في أخمص قدمه،

فعاط ألماً، واستدار برأسه،

وسمعته الحمامة، فطارت

محلّقةً في الفضاء...

ومعها طار حلم صاحبنا

بالغداء على الحمامة الجميلة!.

الديك والثعلب

جَثَمَ ديكُ كثير الحنكة والتجارب على

غصن شجرة، يجيلُ البَصَر حوله تحسُّبا

فجاءه الثعلب، وقال بلسانٍ معسول:

«بُشراك، أخي! خلافاتنا اليوم تنتهي،

ويعمّ السلام بيننا، في كلّ مكان!

جئت أطلب إلى قومك أن يفرحوا جميعاً،

فانزل إليّ، ولْنتعانقْ على الفور..

أرجوك ألّا تبقيني في انتظار،

فلديّ اليوم مَهَمّةٌ بعيدَهْ

عليّ أن أركض لها ثلاثين ميلاً، على الأقّل.

وما عليك، أنت وقومُك، من هذه اللحظة،

إلّا أن تتابعوا شؤونكم، دون خوف أو وجل.

وسنشعل نيران الاحتفال هذه الليلة.

ولكن، قبل ذلك، انزل إليَّ، أرجوك،

لنتبادل قبلاتٍ هذه الاخوّة السعيدَهْ!»

فقال الديك: «ما أطيب هذا النبأ!

وما أطيب أن تأتيني به أنت بنفسك!

ولكن، انظر.. هناك كلبان سلوقيّان، أراهما

يركضان نحونا، ليعلنا النبأ ذاته، ولا ريب.

هاهما كادا يصلان إلينا، فلأنضمَّ إليكم

على الأرض، ونتعانق، نحن الأربعة،

ونتبادل القُّبلْ».

عندها، أجاب الثعلب: «وداعاً!

عليَّ أن أنصرف، فالطريق أمامي طويلة،

والساعة باتت متأخِّرة.

سنلتقي مرَّةً أخرى لنحتفل، قريباً!»

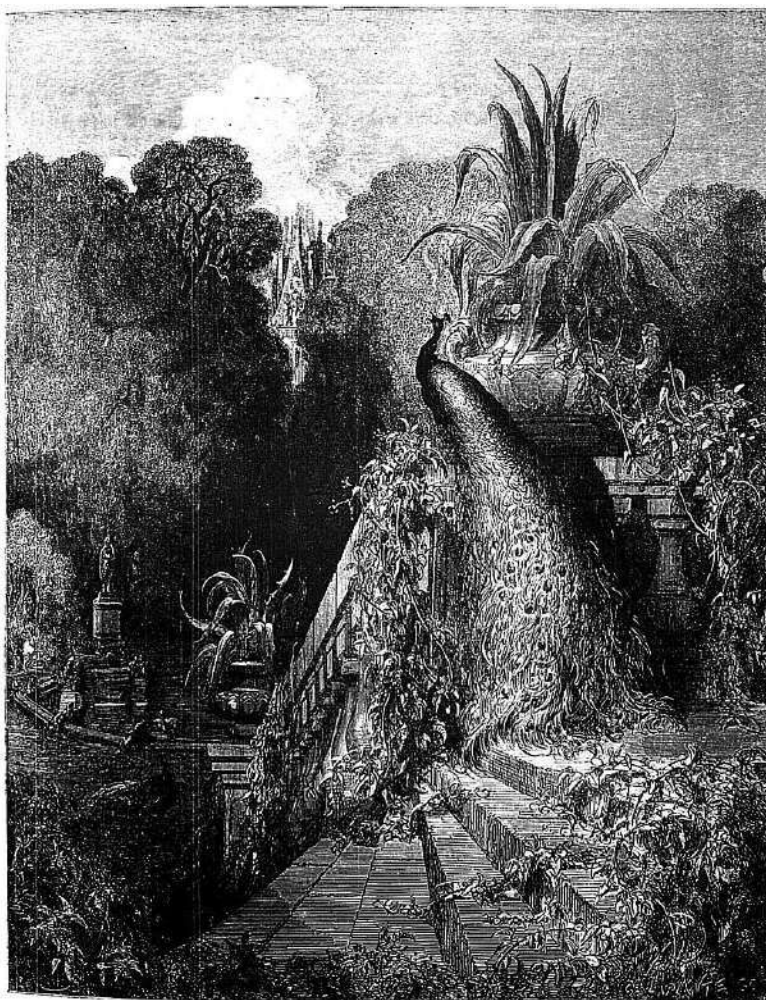
وانطلق راكضاً، وقد خابت خطَّته

وترك الديك على غصنه،

يغصُّ بالضحك عليه!.

ما أكبرها متعةً أن تخدع الذي يخادعُك،

وتكون الضحكة، عندها... ضحكتَيْن!



جونو والطاووس

الآلهـة «جونـو»، فـي الأسـاطير الإغريقيـة، زوجـة «زيـوس»، ربّ الآلهـة. والطـاووس مـن الطيـور المكرَّسـة، لهـا طريقـة سـليمة فـي تحقيـق الانتقـام، بالنيابـة.

طالب الطاووس «جونو» بالعدالة، قائلاً:

آلهتي، إن لي الحقّ في أن

أطعن في قوانين أرباب الأوليمب؛

فالصوت الذي وهبتمونيه منكرٌ

بين أرجاء الطبيعة كلّها

هذا البلبل، وهو مخلوق صغير من زغب،

لا ذيل له يزهو به، يزجي، من حنجرة رقيقة،

أنغاماً ناعمةً بارعة، يطرب لها الربيع

ويعتزّ بها، كأنما هي أروع ما لديه.

غضبت الآلهة، وصاحت به:

صهٍ، أيُّها الطير الحسود!

ألا تستحي من أن تغار من مجرَّد أغنية -

وأنت الذي، في النق الشامخ منك، اجتمعت

مئات الألوان القزحية، وكأنها من حرير،

تتبختر، غادياً رائحاً، في طرقاتي،

ناشراً فتنة هذا الوهج الذي

اصطلحت عليه جواهز الدنيا، من كلّ صوب؟

هل تحت الشمس طيرٌ، أغدق الحسن عليه

بهجة للعين، أكثر منك؟

نحن قَسَمْنا الهباتِ بين مخلوقاتنا،

وأنىَّ للكلّ أن يحظى بكلّ شيء؟

مَيزة بعض الطير حَجْمُهُ أو قوَّتهْ،

والصقرُ سريعٌ، والنعامة شاهقَةْ،

والنسر جريء، والبوم حكيم،

والغراب ينذر بالفواجع،

والكلّ قانعٌ بالنطق الذي من قسمتِهْ.

كُفَّ- إذن- عن شكواك وإلّا،

وحقّ الذي خلقك، مَعَطْتُ منك

هذا الريش الذي تتباهى به، وتزهو!.



قطّة تحوَّلتْ إلى سيِّدة

كان لرجل قطّة، يهواها

لجمالها، ونعومتها، وحريريّ ملمسها،

حتى المواءُ منها كان متميِّزاً!

فجُنَّ بها جنون المحبّ.

وراح، ذات يوم، يضرع لربَّه،

ويذرف الدمع في نجواه ورجائه،

أن يحوّل القطّة إلى امرأة.

وإذا هي امرأة! وفي الحال،

اتَّخذها المجنون زوجة له.

فإذا كان حبّه، من قبلُ، هَوَساً،

غدا، الآن، عشقاً وعبادة!

وما عرفت- قَطّ - حسناءُ

عشقاً جائحاً، من خطيب،

كما عرفت هذه الزوجة الغريبة

من بعلها الأغرب والأعجبْ.

وراحا يقضيان الساعات في الغزل،

وهو، كلّ يوم، يرى طبائع القطّة

تزايل شريكته في الحياة،

إلى أن بلغت خديعته تمامها

وتصوَّر أنها امرأةٌ في كلّ شيء،

كأروع ما تكون المرأَهْ.

ولكن بعض الفئران جاءت، ذات ليلة،

وأخذت تقرض الحصيرة التي

كانا مضطجعَيْن عليها،

فوثبت الزوجة لها،

إلّا أن الفئران هربت

ولم تُصِبِ الزوجةُ أيّاً منها.

وبعد قليل، عادت الفئران، مطمئنّة،

من شكلها، إلى أنها امرأة،

لتستأنف قرضها.

ولكن المرأة كانت قد اتَّخذت وضعها،

وفاجأت الفرائس بخفّة وبراعة،

وقضت عليها.

وبعد ذلك، أخفقت كلّ حيلة لديها

في استئصال تلك الخِصلة من طبعها.

يتحكَّم فينا ما فُطِرنا عليه،

إلى أن نموت.

خِصالنا ترفض الترويض،

وعبثاً يحاول المرءُ خلاصاً،

بإرادته، من هذه القَسّرية المحتومَهْ.

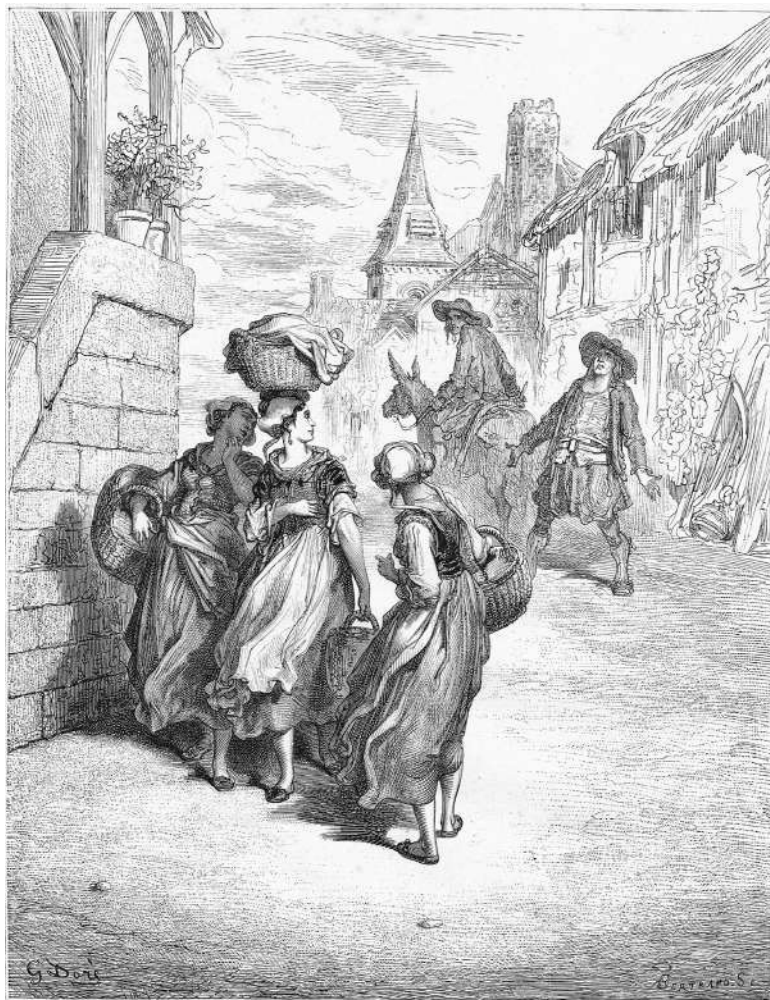
طبائعنا قيود لا تنفصم،

لا السياط ولا العقارب، ولا الحروق

تزحزها عمّا كانت عليه:

اطردها من الباب،

تجد أنها، من النافذة، تعودْ.



الطحّان، وابنه، والحمار

جاء في الكتب أن طحّاناً وابنَهُ

خرجا من البيت ليبيعا حمارهما في السوق.

كان الأب كهلاً أبيض الشعر،

وابنُه الفتى قويّاً، في ربيعه الخامس عشر.

ولمّا أرادا للحمار أن يبقى منتعشاً

ليدخل في سباق السوق،

وهو في القمّة من طاقته،

ربطاه وحملاه، بينهما،

من سيقانه الأربع، كأنه

تمثال من ذهب.

رآهما رجل في الطريق، واستغرب، أوَّلاً،

ثم انفجر بالضحك، وقال:

«ليت شعري، من الحمار من هؤلاء الثلاثة؟!»

فاعترف الطحّان بغلطته، وأسقط العبء

عنه وعن ابنه، وفكّ وثاق سيقانه،

وأطلقه في الطريق.

وإذا الحمار، الذي كان قد راق له

أن يحمله صاحباه، يغضب لما حدث،

ويعبِّر عن غضبه بأعلى النهيق.

لم يأبه الطحّان لذلك، وقال لابنه:

«اركَبِ الحمار، يا بنيّ. أمّا أنا، فسأمشي».

ورأى المشهد تجّار ثلاثة،

فاندهشوا، وصاح كبيرهم:

«ياللعار! أسيِّد صبيّ يخدمهُ

شيخ أخذت منه السنون؟!

أأعيد لك القول، يا فتى؟ ألا تستحي؟

ترجَّلَ، وليركبِ الشيخُ الجليل!»

فقال الأب: «سنحاول، يا سادتي،

إرضاءكم؛ سأمتطي الحمار أنا،

ويمشي الفتى ورائي، كما أردتم».

وما ابتعدوا قليلاً، حتى التقيا

ثلاث فتيات، قالت إحداهن:

«ما آلَمَ أن يتعثَّر هذا الطفل

في سيره، متعباً، في حين يقتعدُ

الرجل الكسول ظهرَ الحمار، كأنه

أمير في محفّة!»

فأجاب الطحّان مغضباً: «أميرٌ

في محفّة، يا سليطات اللسان؟

إليكنَّ عنا، قبل أن أُعْمِلَ الكفّ على

خدودِكنّ الوقحة!»

أجبنَهُ، وأجابهُنَّ، وانتهى الموقف إلى

أن يردف الكهلُ الفتى وراءه

إرضاءً لهنّ.

فقال مستطرق: «كلاهما أحمق!

سيقتلان الدابّة المسكينة

بحملهما الثقيل، وضربها، دون هوادة.

يا للقسوة! ألا يرحمان عبداً

يخدمهما بهذا الوفاء والإخلاص؟».

وهنا، عاط الطحّان من يأسِه:

«مجنون من يؤمِّلُ أن يُرضي الناس جميعاً.

ولكن، لعلّ ثمّة وسيلة أخرى نجرِّبها!».

واقترح على ابنه أن يترجَّلا كلاهما،

وليتبختر الحمار، أماهما، بكبرياء.

ومرّ رجل بهما، فقال: ماذا أرى؟

أيلهث الطحّان، ويمشي الحمار على رسله؟

يا شيخنا المأفون، أيتهرَّأ حذاؤك

ليرتاح حمارك؟

لماذا لا تحفظه كتحفة في صندوق من زجاج،

أم أن ثلاثتكم حمير، جميعاً؟

أجاب الشيخ: «صدقت، يا رجل!

إني- والله- حمار، إذ أستجيب

لرأي كلِّ مَنْ هبَّ ودبّ.

ولكن، منذ هذه اللحظة، لن أعمل إلّا برأيي.

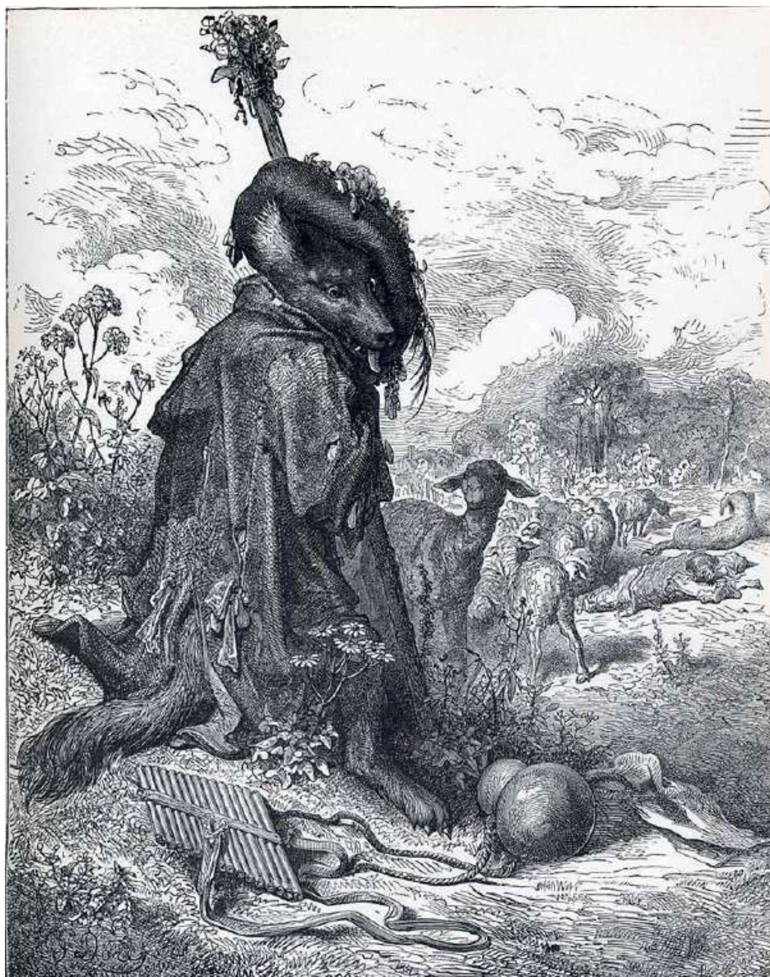
لن أرضي إلّا نفسي، وحدها!

قولوا ما شئتم، واقدحوا أو امدحوا،

لأن المرء، مهما فعل، في الريف أو في المدينة،

لابدّ أن يتكلَّم الناس ويلغطوا؛

إن لم يكن نقداً، فمذَمَّهْ!».



الذئب راعياً

وجد ذئب أن نصيبه، من النعاج والحِمْلان،

في تناقص سريع، فقال لنفسه:

«لماذا لا أتلقَّن درساً عن الثعلب،

وأخرج من الضائقة، ببراعة الحيلة؟»

وقرَّر أن يتنكَّر في شكل راعٍ.

وبعد أن تمعَّن في زيّ الراعي، وطرَّزه،

ارتدى عباءة، وأمسك بعصاً معقوفة،

ودسّ بين فكَّيْه غليوناً من الجصّ،

و- كَلَمْسة أخيرة- كاد يكتب على غُطرته:

«حسّونة الراعي»!

بهندامه هذا، واكئاً قدميه الأماميَّتَيْن

على العصا، تسلّل حسّونة المزيّف

إلى حيث رأى حسّونة الحقيقي

غارقاً في النوم، ونايُه على صدره،

وكلبه نائم بقربه، وأغنامه كلّها،

أيضاً، نائمة، سوى اثنتَيْن منها أو ثلاث.

وكيما يجتذب الأغنام اليقِظة، أراد

الراعي المزيَّف أن يتقن الخديعة،

بتقليد صيحة حسّونة الحقيقي،

معتقداً أنه- بذلك- قد بلغ أوج الدهاء!

ولكن تلك الصيحة هي التي حرمته من الغنيمة،

لرداءة تقليدها:

تردَّدت أصداؤها في الغاب كلّه،

وفضحت خطّة الذئب المدروسة.

واستيقظ النيام جميعاً: الراعي،

والكلب، والأغنام، بصدمة ما سمعوه،

وتعثَّر الذئب الخائن بعباءته،

بحيث ما استطاع أن يقاتل،

ولا استطاع إطلاق سيقانه للريحْ.

في كلِّ حيلةٍ خبيثة، تكمن نقطة من ضعف؛

فإن كنت ذئباً، تأكَّدْ أن أسلم التصرُّف

هو التصرُّف كالذئابْ.

www.jadidpdf.com

الثعلب والتيس

خرج الثعلب يتنزَّه، يوماً،

مع تيس طويل القرنين جدّاً:

والواحد حيّالٌ ذائعُ الصيت،

والآخر لا يرى ما هو أبعد من أنفه.

ولشدّة الحَرّ، في الظهيرة،

أصابهما العطش، وهبطا في بئر،

يطلبان الريَّ في مائها القريرْ.

ولمّا ارتويا، قال الثعلب:

«وما العمل، الآن، يا صاحِ؟

كيف نخرج من هنا؟

عندي فكرة: ارفع قرنيك عالياً،

وارفع قدميك الأماميَّتَيْن معهما،

وركِّزهما على الحائط.

على عمودك الفقري، عندئذ، أتسلَّق أنا،

ثم أصعد على قرنَيْك، وبعد ذلك

أقفز إلى السطح، وأرفعك، ثم ننطلق!

ماذا تقول في خطَّتي البارعة؟»

أجاب التيس: «وحقّ لحيتي، إنها

لأبرع خطّة! كم أنا معجب

بالشاطرين الذين من أمثالك!

و- بصراحة- ما كانت خطّة كهذه

لتخطر- قَطَّ - ببالي!».

وفَعَل التيس كما أراد له الثعلب،

الذي تسلَّق على ظهره وقرنَيْه، وخرج

تاركاً رفيقه في قاع البئر،

وألقى عليه، من فوقٌ، موعظة قصيرة

في حسنات الصبر الجميل،

ثم أضاف: «ولو حباك الله عقلاً،

بقدر ما حباك من لحية،

لما تسرّعتَ بالنزول إلى القاع

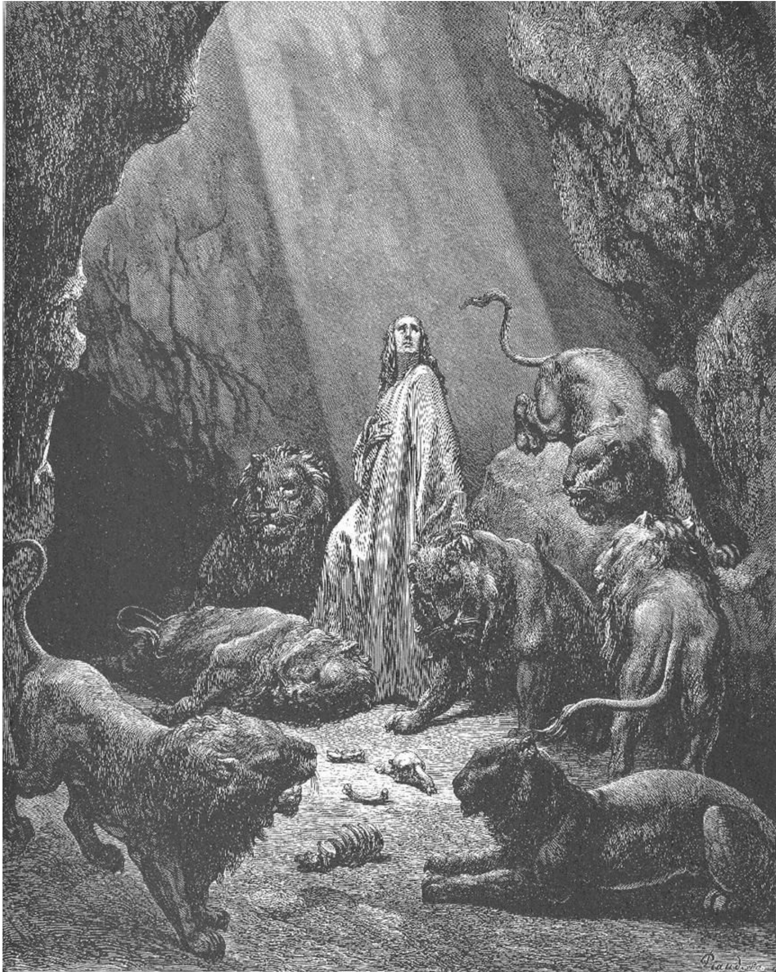
في بئر عميقة، كالتي أنت الآن فيها...

أنا خرجت، فحاول أن تفعل مثلي.

والآن، وداعاً. لديَّ موعدٌ مع صديق..».

قبل أن تأتي أيَّ فعل، تبصّرْ بعواقبه

لَئِلاَّ تعضَّ بنانَ كفِّك من ندمْ.



الأسد المغلوب

راح جمهور كبير يتأمَّل لوحةً،

رسمَ الفنّان فيها أسداً رهيباً،

صرعه صيّادٌ، بمفرده.

وبينما هم في دهشة وإعجاب،

اقترب منهم أسد، قطع الكلام عليهم،

وقال: «أنا معكم في أنكم،

في هذه الصورة، انتصرتم على الأسد.

ولكنه انتصار، أوهمَكمُ الفنّانُ به،

وللفنّانِ حرِّيَّته في الإيهام أو الخديعة.

لو أن الأسودَ ترسم الصور، أيُّها السادة،

لكان الموضوع في هذه اللوحة أمراً آخر، بالمرّة،

وأصحّ من هذا بكثيرْ!»

الذئب واللقلق

مضرب المثل، بالشراهة، هي الذئاب.

وفي إحدى ليالي اللهو والمآدب،

الْتَهَمَ ذئبٌ وصلةَ لحم بهمٍ،

كاد يلفظ به أنفاسه الأخيرة:

في بلعومه، عصت عظمة

منعت عنه حتى الصياح.

ومن حُسْن الصُّدف أن مَرَّ لقلق

في الجوّ، رآه يؤشِّر له،

فهبط إليه على عجل، وببراعة الجرّاح،

راح- بمنقاره- ينزع العظمة من أعماق حلقه.

ولمّا فرغ من مهمَّته، وأراح الذئب من عذابه،

طلب منه أجرَهْ.

فقال الذئب: «أتطلب أجراً؟! أتمزح؟

تدسّ منقارك وعنقك بين شدقيَّ،

ثم تخرجهما سالمَيْن،

وتريد المزيد من أجر؟!

يا ناكر الجميل، أطلق جناحيك للريح،

قبل أن تحطّ عليك مخالبي!».

الذئاب والخرفان

بعد حرب طالت ألفَ عام وأكثر،

بين الذئاب والخراف، اتَّفقت على السلام

بشروط لصالح الطرفين:

فالذئاب، إذا افترست كلَّ خروفٍ ضالّ تلقاه،

جعل الرعاة من جلود الذئاب كساءهم،

فلا الخراف تعرف الأمن في مرعاها،

ولا الذئاب تهنأ في فرائسها،

ولا هذه ولا تلك تحقّق المتعة في حاجاتها.

وهكذا، أبرم الجانبان السلام، وتبادلا الرهائن؛

فسلَّمت الذئاب أشبالها للخراف،

وسلَّمت الخراف للذئاب كلابها.

ورتَّبتِ الأمرَ لجنةٌ عليا

وفقَ الأصول والمراسم.

ومرَّت الأيام، وكبرت الأشبال ذئاباً

تشتهي لحم الضان.

وجاء يوم، ترك الرعاة فيه رعيَّتهم،

فأطبقت الذئاب على أسمن الحملان

(وقد اتَّفقت- سرّاً- مع آبائها وأمَّهاتها)،

وحملتها بين أنيابها، إلى الغاب

وكانت الكلاب، لثقتها العمياء،

تغطّ في نومها، فهاجمتها الذئاب

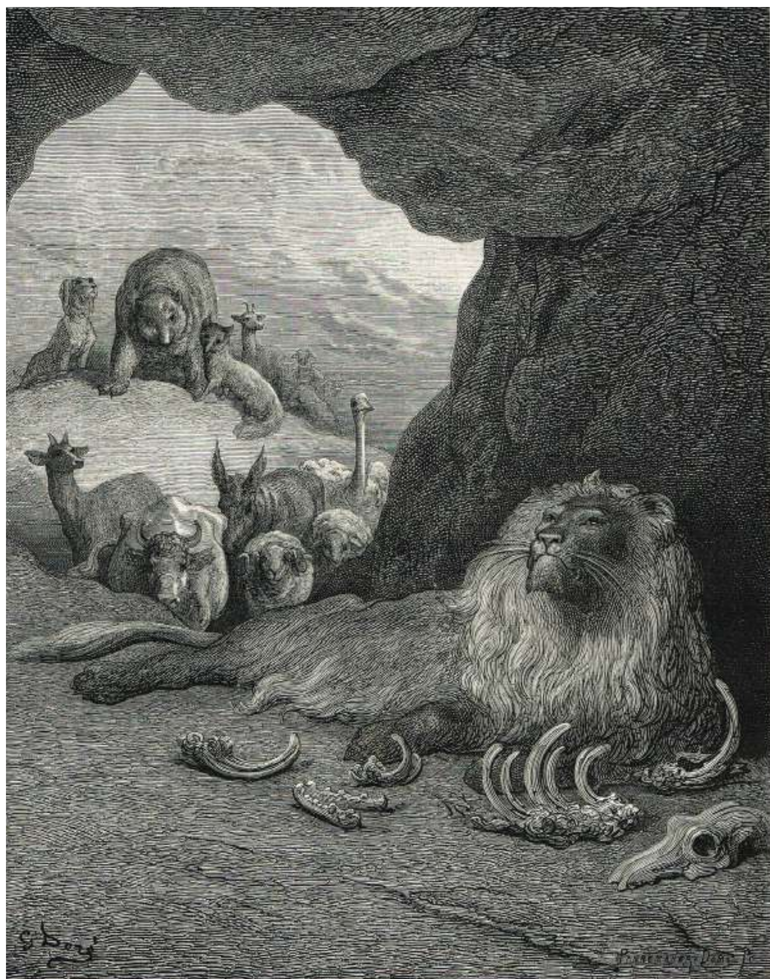
وقطّعتها أشلاء داميَةْ.

أنعقدُ سِلماً مع الأشرار،

وهم أولى بقتالنا، كلّ يوم؟

ما أطيب السلام! أدري، ولكن:

أَنُسالمُ أعداءً، شيمتهم الغدرُ والخيانَهْ؟



الأسد الهرم

هَرِمَ الأسد ملك الغابات ومُرعِبُها،

وأحنت الأعوام، في النهاية، ظهره.

وإذ راح يندب جبروته الضائع

رأى، ذات يوم، عبيده يهاجمونه،

واجدين في وهنه قوّةً لهم، يستغلونها:

دنا الحصان منه، ورفس سيّده بحافره،

وعضّه الذئب بنابه، والثور- بقرنَيْه- نطحه،

والملك المسكين خائرٌ، حزين، مريض،

أقعدته الشيخوخة، وما في صدره نَفَسٌ يزأر به.

وارتمى أرضاً، في انتظار النهاية.

لا يتنهد حتى بحسرة.

وإذا هو، بعد ذلك كلِّه،

يرى الحمارَ- أيضاً- يقترب منه،

فصاح صيحة ضعيفة، وقال:

«كفى! لقد هَزُلَتْ!

كنت راضياً بالموت يجيئني،

أمّا أن تتطاول حتى أنت عليّ،

فإنني مِيتتَيْنِ اثنتَيْنِ أموت، لا واحدَهْ..»

المرأة الغريقة

أنا لستُ ممن يقولون:

«امرأة تغرق! وما همَّني؟»

بل همَّني، ويجب أن يَهُمَّ غيري؛

ألسنا- معشر الرجال- مدينين لهنّ بالكثير؟

وهذا الكلام في مكانه؛

لأن قصَّتي تدورُ حولَ امرأة

لقيَتْ حتفها في النهر،

فراح زوجها- مضطرباً- يبحث

عن جثَّتها الفقيدة،

لِيُكرمَها بالجنازة والدفن.

والتقى على الضفة، التي

بقربها، غاصت السيِّدة المسكينة،

رَجلين يتسكّعان، ولا يعرفان

شيئاً عمّا وقع من مأساة.

ألْحَف الزوج بالسؤال والتخمين

عن موقع الجثّة المحتمل؛

فهلّا أسعفاه برأي،

للعثور على الزوجة العزيزة؟

أجاب الأوَّل: «لا رأي عندي،

ولكن استمِرَّ نزولاً في بحثك،

وتابع النهر في مجراه».

أمّا الثاني، فصاح: «دع عنك ذلك!

بل عُد القهقرى، وابحث

في المكان الذي تركته وراءك؛

فمهما يكن المجرى الطبيعي، الذي

يحملها الماء في اِتّجاهه،

فتأكَّدْ أن روح المشاكسة الأنثوية

قد حملتها في الاتِّجاه المعاكس!».

كانت النكتة يعوزها الذوق والخلق،

ولو أن القرّاء سيختلفون حتماً:

هل كان قائلها على حقّ أم كان على خطأ،

في موقفه من طبيعة النساء؟

لكن حبّ المشاكسة والاعتراض

إذا تعمَّق في طبع إنسان،

لازمَه طوال سنين حياته،

بل- ربَّما- لازمه طوال بقائه

في العالم الآخر، أيضاً!.



الأسد عاشقاً

أسد من ذوي النسبِ العريق،

كان يمشي الهوينى، في مرج كثير الرياحين،

حين التقى راعية مليحة الوجه والقوام،

فأحبَّها وذهب، في الحال، إلى أبيها

يطلبها زوجة له.

بيد أن أباها تمنّى لو أن الخطيب

أقلّ بطشاً وإثارةً للرعب،

ولم يرقْ له الأمرُ كثيراً،

غير أنه أدرك مخاطر الرفض الذي

قد يؤدّي إلى زواج،

دون إذن منه، لأن ابنته افتُتِنَتْ

بقوّة خطيبها وشموخه!

وهل من فتاة قاومت، يوماً،

صاحب الشعر الجَعْد الغزيرْ؟

فقال لنفسه: من الحكمة ألّا

أتورَّط برفض صريح،

ثم قال للأسد:

«ابنتي، أيَّها الليث العظيم،

رقيقة الإهاب، كما ترى،

وحين تلمسها جلالتكم، بالمخالب،

ستلقى الأذى

فلو كنت مكانك، لقلّمتها،

وأنيابك المواضي هذه، يجب تلطيفها؛

لتكون قبلاتُك أقلَّ خشونة،

وفي ذلك خيرٌ لك، لأنها

تستجيب، بالمزيد من التوق والحرارة،

إذا لم تلقَ منك ما يخيفها

ولمّا كان الحبُّ قد أعمى الأسدَ الشجاع،

ذهب لتنفيذ ما أوصى به أبو العروس.

و- بسرعةٍ- عاد إليه بلا أنياب

وبلا مخالب، كالحِصْن المهدّم.

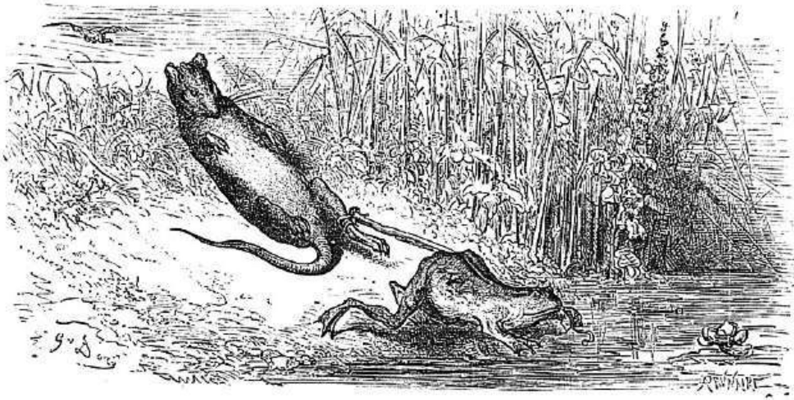
وفي الحال، صَفَّرَ أبو الفتاة لكلابه،

فانقضَّت عليه بأنيابها،

فريسةً سهلةً عاجزةً عن كلّ مقاومَهْ.

أيّها الحبّ، ما إن تغزو القلبَ حتى

يطيرَ عقل المرء، ورشادُهْ!.



الضفدعة والجرذ

كان هناك جرذ سمين حسن الشكل،

حسن التغذية، لم يعرف، يوماً، الصومَ

أو التقشُّف، يعنى بملذّاته قرب مستنقع.

اقتربت منه ضفدعة، وبادرته بقولها:

«تعال زُرني، أهيِّئ لك مأدُبة!»

فقبلَ الجُرَذ الدعوة، في الحال،

وما كان ثمّة حاجة لإقناعه بمطنب الكلام

ومع ذلك، فإن الضفدعة ذكرت له لذّة

الاستحمام،

ومتعة الاكتشاف، ومحاسن الطريق،

ونوادر الكنوز في خضرة الرواكد،

بحيث سيأتي يوم، يتحدَّث فيه، لأحفاده،

عن روعة المشاهد، وعادات سكّانها،

وطرائق الحكم والإدارة

في العوالم المائيَّة.

أمرٌ واحد، كان عائقاً للسيِّد المحترم،

إذا لم يساعده أحد فيه؛

إنه يكاد يعجز عن السباحة،

لكن الضفدعة أسعفته بالعلاج:

ربطت قدمه بقدمها، بخيط من الحَلْفاء،

وأنَهتِ المشكلَهْ.

وما دخلا المياه، حتى راحت المضيِّفة الكريمة

تحاول جرَّ ضيفها إلى الأعماق،

خارقةً حقَّ الجوار، والشرائع الدولية،

مدَّعيةً أنه صَيْدُها، ومُلكها،

وتخيّلتْ مذاقَه الحارّ اللذيذْ

في لقمة رائعَهْ!

فأشهد عليها الآلهة، والخائنة تضحك منه.

جرَّ نفسه، فجرَّته إليها،

وإذ هُم في ذلك الصراع الطريف،

ظهرت في الفضاء حَدَأة حَوّمت فوقهما،

وأدركت أن صاحبنا البدينَ يكافح في الطين،

فحطّت فجأةً، ورفعت، بمخلبيها،

الجُرَذَ والحلفاءَ والضفدعةَ دفعةً واحدة،

فرحى بالفريسة المزدوجة،

التي جعلت وقعتها كاملة؛

وقعةً من لحم و«سَمَك»!

أحسنُ الخطَطِ المدبَّرة

تنقلبُ على مدبِّريها!

و«على الباغي، تدور الدوائرْ».

انتقام الحصان

لم تولد الخيل، منذ البداية، ليركبها الإنسان،
فالإنسان، في القِدَم، كان يقتات على البلّوط
وثمار الأشجار وما تُنبته الأرض طوعاً.
والحصان والحمار والبغل كانت، يومئذ،
تعيش في الغاب،
ولم تكن تُكسى بشيء ممّا نراه، اليوم،
من سرْج أو ركاب أو خَرجٍ جميل النسيج،
للركوب أو حَمُل الأعباء،

فلا هي كانت تُطَهَّم للقتال،

ولا هي تُهيّأ بعدّةٍ لجرّ العربات

مع غزال «سريع الركض»، راح يطارده

وأخفق في اللحاق به، فاشتدّ حَنَقُه

واستنجد برجل، طالباً إليه

أن يُعينَه -بالحيلة- على غريمه

فركَّب عليه الرجل العِنانَ والشكيمة،

وامتطى ظهره، وحَثَّه، بالمهماز،

على الخبّ في الفلاة، في إثر الغزال،

ولم يسمح له بوقفة لالتقاط أنفاسه،

إلى أن أمسك بالغزال، وصَرَعَهْ

وعندها، شكر الحصان لحليفه جهده،

قائلاً: «سأذكر لك هذا الجميل، دوماً.

الوداع؛ عليّ أن أعودَ إلى الأحراش

طلباً لخَلْوتي، وقوتي».

وإذا الرجل يقول: «أبداً!

أراك مفيداً لي.

تعالَ معي، تجدْ عندي الراحة،

والطعامَ النقيَّ المنتظم،

وأكوامَ القشّ والتبنِ؛ منعاً للبرد عنك.

وأدرك الحصان خطأه، وارتعب،

وندم، ولكن، هيهات!

ضاعت منه حرِّيَّته، وضاعت معها نعمتُهْ!

هيَّأَ صاحبُهُ الإسطبل،

ورَبَطه فيه بين جدرانٍ أربعة،

وهناك، عاش في العبودية حتى

وافته المنيَّة، وهو يردِّد كلّ يوم:

«كنت سأبدو أكثرَ حكمةً لو تغاضيت عن

أمر تافهٍ من مخلوقٍ لا شأن لي معه!»

عَذْبٌ هو الانتقام، ولكن

ما أغلاه إن كان الثمن

هو التنازل عن ذاك الذي،

إذا ما فُقِد، لم يبق، بعده، للعيش، قيمة[1]!.

(1) إذا اشتكى قارئ من هذه الحكمة، له ألّا يأخذ بها قبل أن يقرأ الحكاية التالية «الأبلة والحكيم»، حيث سيجد طريقة في تحقيق الانتقام.

الأبله والحكيم

راح أبله يقذف حكيماً بالحصى،

فاستدار الحكيم إليه، وقال:

«ما أبرعك في الرماية!

هاكَ درهماً لقاء ما فعلت.

ليتني أقدر أن أُنقدك درهمين؛

فالصانع يستحقّ أجره كاملاً.

ولكن، جَرِّبْ فنَّكَ في ذلك الرجل الذي

تراه واقفاً عبر الطريق؛

إنه غنيّ، وبوسعه أن يُنقِذَك، بسخاء»

وغيَّرَ الأبله المأفون في الحال، هدفه؛

طمعاً في المال الحرام.

غير أن الذي ناله، عندئذٍ،

لم يكن أيَّ دراهم!

إذ أسرع إليه عُصبةٌ من الخدم،

وأمسكوا به، وأشبعوه لكماً،

ونهنهوا عظامه رفساً وضربا!

للملوك مهرِّجونَ في خدمتهم

يشنقونك، من أجل إضحاك أسيادهم؛

فلكي تَسُدَّ أفواههُم، لا تحاول إيذاءهم،

إلاّ إذا تأكَّدت من أنك ستفوز

في نزالك معهم.

والحيلة الأبرع هي أن تدفعهم

في اتِّجاه مَنْ له القدرة على

ردِّ الصاع صاعَيْن أو أكثر،

وأنتَ خليُّ البالِ، مرتاحٌ، ومطمئنّ.

قول لسقراط

بُنيَ لسقراطَ بيتٌ،

لم يرض عنه معارفُه؛

أحدهم قال إن زُخرفَه الداخليَّ

لا يليق بسمعته الرفيعة،

وانتقد الآخر من البيت واجهته،

واتَّفق الجميع على أن الغُرَفَ كلَّها

أضيقُ من أن تصلح لسكناه،

قائلين: «أأنت تقيم في بيت،

يعجز المرء عن أن يستدير فيه!؟»

فقال: «ياليت لي

من الأصدقاء الأوفياء عدداً

يملأ هذا البيت الصغير!».

وما أحْكَمَ قولَ سقراط هذا!؛

فالأصدقاء المدّعون الوفاء

عديدون في كلّ مكان.

ولكن، قبل الوثوق فيهم، امتحنْهم،

تجدْ أن الاسمَ أشْيَع ما في الأرض،

والمسمَّى الحقيقيَّ، ماأندره!.

الشيخ وأبناؤه الثلاثة

«كلُّ قوّة هي ضعفٌ محْض،

إذا اعْوَزَتها الوحدة».

هكذا نتعلَّمُ من «إيسوب».

لن أروي الحكاية خيراً ممّا رواها،

ومن أنا إذا قستُني به؟

ولكني سأعصرنّ حكايته،

بل قصَّتَه الحقيقية،

عن شيخ حكيم وأبنائه الحمقى الثلاثة:

أحدُهُم، تقدَّمت به السنون،

وأدرك أن أجله قد دنا،

فدعا إليه أبناءه، وقال لهم:

«أولادي الأعزّاء، هذه حُزْمة

من السهام، أتَقوَوْنَ على كسرها؟

جرِّبوا.. وإذا عجزتهم،

أريتكم أنا كيف تكسرونها».

أخذ الأكبر حزمة السهام،

وحاول -جاهداً- كَسرَها،

ثم اعترف بعجزه، وأعادها لأبيه.

وأعمل الثاني عضلاته المفتولة،

وأخفق كأخيه.

والثالث أجهد نفسه،

كأخوَيْه، دون طائل.

ومهما جربّوا، ولَهثوا، وعَرقوا،

لم يُفلحوا في كسر سهمٍ واحدٍ،

في الحُزمة المشدودة.

فصاح أبوهم:

«أخجلتموني، والله، يا شباب!

هاتوا السهام لكي أرى

كيف أتمكَّن أنا من كسرها!».

فأعطوه السهام مبتسمين،

يدارون مزاجه، لتسليته.

وإذا هو يقطع رباطها، وينثرها،

ويكسرها واحداً واحداً،

بكل يُسرْ،

وقال: «أتأمَّلتم قوّة الاتِّحاد والانسجام معاً؟

تعلَّموا العيش -إذن- متعاونين،

وما أضعفكم، إن أنتم يوماً تفرَّقتم!».

اشتدّ مرض الشيخ عليه،

وحين أنذره الألم بقرب ساعته،

قال لهم، مرَّةً أخرى:

«أبنائي الأحبّاء، راحل أنا

إلى الرفيق الأعلى.

أقسموا على العيش معاً،

في محبّة وإخاء، لتريحوني

في ساعتي الأخيرة».

بالدموع والحسرات، وعدوه، جميعاً،

بطاعة وصيَّته، وأسلمَ الروح.

كان ميراث الأبناء كبيراً، ولكنه

كثير التعقيد والتداخل؛

فثمة مطالبات من الأقرباء بديون مستحَقَّة،

وثمَّة دعاوي في المحاكم.

ورغم أن الأبناء الثلاثة تصرَّفوا

خيراً، أوَّل الأمر، أخذت

مصالحهم تتعارض، وتفَرّق فيما بينهم.

وهل للقلب قدرة على الحبيب؟

حَلَّ الطمعُ، وحلَّ الحسد،

والأنانية فعلت فعلها،

وجاء دَورُ القضاء والمحامين،

وكانت النتيجة المحتومة:

خدعهم المصلحون، وغشَّهم أصحاب الرأي،

وحكمَ الحكّامُ ضدّهم في كلّ قضية،

وتجمهر عليهم الأقارب والدائنون

كالزنابير، وبرهنوا على أنهم

مخطئون، شكلاً ومحتوًى. بكلّ ما يملكون.

ولم يستطع الأخوة اِتّحاداً

حول أيٍّ أمر من أمورهم:

هذا يريد التنازل، وذا يطلب القتال،

والثالث يرفض أن يستجيب

لأيٍّ من الاثنين.

ولم يتذكَّروا أمثولة أبيهم والسهام

إلّا بعد أن فات الأوان،

ولم يبق من ميراثهم الكبير

إلّا الهباءْ.

الأرنب وأذناه

زعموا أن حيواناً ذا قرون، ذات يوم،

نطح الأسد. ويا لغَضْبة الأسد!

لقد أصدر أمراً، على الفور،

منعاً لمثل هذه الجريمة النكراء.

بالقضاء على كلّ من يحملُ قرناً،

في أيّ ركن من مملكته.

وللحال، لم يبقَ كبشٌ أو عنزة،

لم يبقَ ثور أو وعل أو غزال،

إلّا وفَرَّ إلى حيث يحظى بالأمان.

وكان ثمّة أزنبٌ، أصابه الفزع؛

إذ رأى الظلَّ الذي تلقيه، على الأرض،

أذناه الطويلتان، وقال لنفسه:

«ما الذي سيكون منّي أن جاءني

فضوليّ، وصاح: هذان قرنان!

وجرَّ بي إلى هلاك؟ يا ويلتاه!»،

والتفت إلى الزيز، وقال:

«وداعاً، يا صديقي! إني راحل، على عجل.

سيزعم أعدائي أن الأذنيين، عندي، ضرب من قرون،

حتى ولو كانت أذناي أقصر من أذنَيْ نعامة».

أجابه الزيز: «أذناك قرنان؟!

ما هذا الكلام؟ خلقهما الباري أذنَيْن،

وأذنين ستبقيان!».

فقال الأرنب المسكين: «لا، بل سيزعمون أنهما قرنان، أصلبُ معدناً من قرن الكركدن،

وقبل أن أستطيع برهاناً على العكس

سيكون جلدي قد أوصلوه للدبّاغ!».

الثعلب الذي فقد ذيله

كان ثمّة ثعلبٌ غزير المكر والحيَل،

شهيٌر؛ لكثرة ما نهب من أرانب ودجاج،

ذائعٌ الصيت بخبثه.

مرَّ الزمان عليه، فشاخ. وإذا هو، يوماً،

يقع في فخّ، لم ينجُ منه إلّا بمعجزة!

ولكن، بعد أن دفع الثمن؛ إذ لّفَ وراءه ذنَبه!.

بلا ذَنَب! ياللمصيبة! ياللعار!

فأعمَلَ سيِّدُ المكر فكرهُ

ليجعل الثعالب كلَّها في مثل حاله.

وفي اجتماع عامّ، لِبَني قومه،

نهض وقال: «ما نفع هذا العبء السخيف

نجرُّهَ وراءنا، نكنِّس به روَث الطرق؟

ما نفع زائدة كهذه،

ما لنا منها إلّا العناء؟

ولذا، فإني أنصحكم: لا ذيول بعد اليوم.

اقطعوا ذيولكم.

فصاح ثعلب: «أحسنت، أحسنت!

ولكن -رجاءً- أدِرْ إلينا دُبُرَك لحظةً.

وبعدها، نُجري التصويت».

فلمّا أدار الدبُر، ورأوه فقيد الذنَب،

ضحكوا، وعاطوا، وصفَّروا، وهزئوا،

حتى لم يعد، للمسكين، صوت يسمعونه،

وبقيت الذيول مكانها، وظلَّت

كما كانت، دائماً، هي العادة المتَّبَعَهْ.



الشمطاء والجاريتان

كان، لشمطاءَ، جاريتان

تغزلان غزلاً، ما استطاعت مثله

ابرع النساء الغازلات!

وما همّها إلّا أن تسوقهما سَوْقَ العبيد.

ما تكاد الشمس تدحر ظلمة الشرق، حتى

تُقيم دولاب الغزل بينهما: اغزلي، يا هذه

لا تبطئي، وانتبهي، استعجلي..

صبحاً، ضحىً، ظهراً، عشيَّه.

يشقشق الفجر بعيداً، وإذا

ديكٌ لها، أشعث ضامر صيحته،

فتهبُّ العجوز شعثاء ضامرةً مثله، من فراشها،

وتكتسي بثوب، كلّه أوضار ودهون،

وتشعل مصباحاً صديعاً، وتهرول

إلى حيث تغطّ المسكينتان المرهقتان

في نوم نَهِمْ.

تمدّ إحداهما ذراعاً، وتفتح الأخرى نصف عين،

وكلتهاهما تُقسم هامسةً، بحقد،

على قتل ذلك الديك البغيض.

وسرعان ما تنفِّذان القسم،

وتموت الصيحة الهزيلة المشؤومة.

ولكن هل غنمت القاتلتان بشيء؟؛

غدت الشمطاء نفسها منبِّهةَ الصباح

وـخشية أن تفوتها الساعة، أو تغفلَ عنها- ما تكاد

الجاريتان تستلقيان على الفراش،

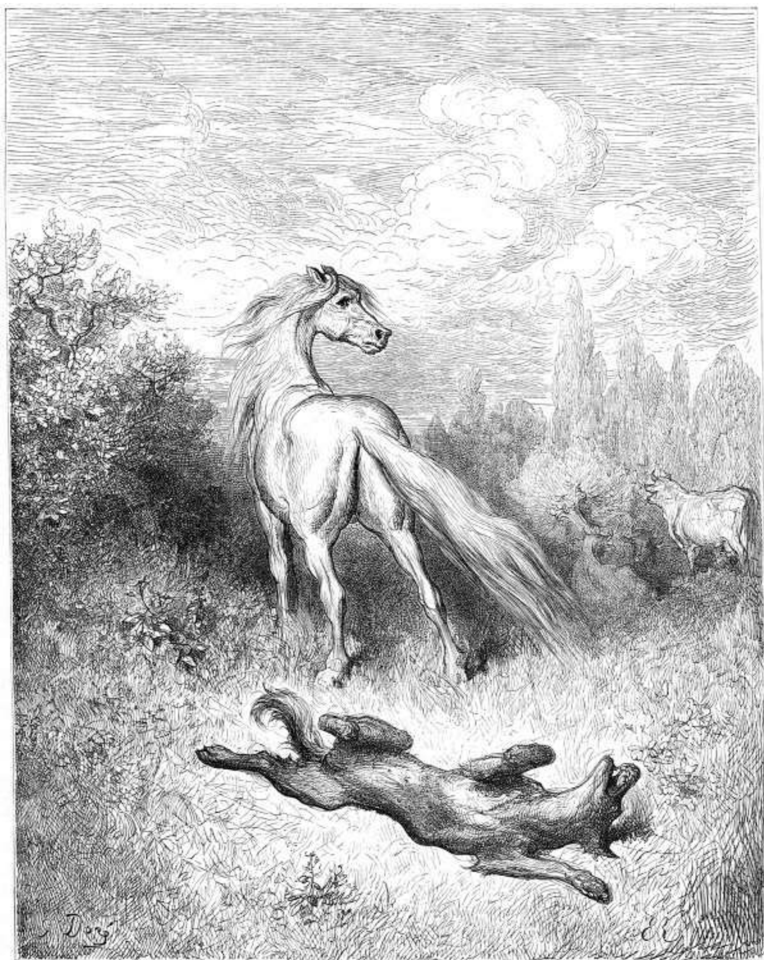
حتى تروح خابطةً في البيت، عليهما، خبطَ العتاهْ.

كثيراً ما نكافح طلباً للنجاة،

فنسقط فيما أشدّ وأدهى؛

فمُستَبدِل الديك بأمّ نزارِ،

كالمستجير من الرمضاء بالنارِ.



الحصان والذئب

زخّاتُ المطر، التي حملتها الرياح الغربية،

أَحَيتِ العشب في المروج، من جديد،

وخرجت مخلوقاتُ الأرضِ من أوكارها وجحورها؛

طلباً للدِّفء والقوت والمرعى.

وانطلق الذئبُ -كغيره- من إسار الشتاء،

ورأى حصاناً يقضم الحشيش على مهل،

فطار قلبُه فرحاً لما رأى،

وقال: «كان من الأروعَ لو أنه معلَّق بعُرقوبه،

أو لو أنه شاة، ولو غير مذبوحة،

لكنت، عندها، التهمتُها في لحظتين!

ولكن، عليَّ الآن بالدهاء..».

وتقدَّمَ من الحصان بخطًى وئيدة، وانحنى له

كأنه من عشيرة أبو قراط،

وقال: «إني أعرف خصائصَ كلِّ عُشبةٍ،

وكلِّ عُقَّار في الحقول، يا سيِّدي.

ولا أريدُ التباهي، ولكنني

شَفَيْتُ خيولاً من أمراض كثيرة،

وبودّي لو أعالجُ سيِّدي وأشفيه،

دونما أجر، إلّا إذا كان يؤثِرُ ألّا

يكشفَ لي عن دائه!؛

فمن قواعد الطبّ

أن شهوةَ الرَّعْي هكذا،

دون كابحٍ أو قيد، من أعراض

مرضٍ خطير يجب -في الحال- علاجُه».

فاعترف الحصانُ أن في حافره

قُرحةً تؤذيه،

فهتف الذئب: «في حافرك؟ لا!

إنه للقرحة أخطرُ مكان!

ما أكثر الذين عالجتُهم

من كرام قومك، وشفيتهم بحكمتي!

هاتِ، أَرِني حافرَكْ!».

وظنّ الوغدُ أن الفرصة قد واتته،

وانحنى ليتأمَّلَ الحافرَ، كالطبيب،

غير أن الحصانَ الذي سمع كلامَ الذئب

وكلُّه شكٌّ وريبة، رفع حافِرَهُ

ورفس الذئبَ بقوّة، وحطمّ فكَّهُ وأنيابَه.

وعاط الذئبُ وانسَحَت، وهو يقول لنفسه:

«أستحقُّ ذلك، وأكثر!

من صالحي ألّا أؤدّي مهنةَ غيري

أنا جزّارٌ ابنُ جزّار،

ففيم ادّعائي الطبَّ والصيدلَهْ؟».

جبل في المخاض

جاء المخاض، يوماً، جبلاً،

فصاح الجبل وهزّ الأرض بصيحته.

وكلّ مَنْ سمع الصراخ

جاء يسعى راكضاً، ويقول:

لا ريب أن هذا الجبل،

في رحمه مدينة، أكبر من باريسَ بمرَّتَيْن!

ولما وضع وليده في النهاية،

كان الوليد فاراً!

كلَّما تذكَّرت هذه الحكاية،

(فحواها محض خرافة، بالطبع،

ولكنها دقيقة في مغزاها)

أرى مؤلِّفاً مُكبّاً على منضدته،

يقول: «سأكتب أعظم ملحمة

عن حروب العمالقة مع أرباب السماء».

ما أجمل ما يَعِدُ به قرَّاءه!

ولكن، عندما يصدر الكتاب، أخيراً،

ما الذي أرى؟ مجرَّدَ ريح، وهراءْ!.

الدجاجة التي كانت تبيض ذهباً

«الطمع فرَّقَ ما جمع».

برهاناً على صحَّة هذا المثل،

خذ ذلك الأبله الذي قيل فيه:

كانت له دجاجة تبيض له، كلّ يوم،

بيضةً من الذهب،

فظن أن جوفها كنزاً مخبَّأً،

فذبحها، وشقَّ صدرها،

فماذا رأى؟

رأى أن جوفها، بالضبط،

كجوف أيّة دجاج عادية أخرى!

فبكى ولطم؛ لأنه،

بيده، جنى على نفسه.

ما أكثر طالبي الثراء السريع، الذين

في الصبح تجدهم في دفء فراشهم،

وفي المساء تجدهم على الرصيفِ عُراة!.

الأفعى والمبرد

جاوِرَتْ أفعى صانعاً للساعات،

(وما أسوأه جوارا لصانع الساعات!)

ودخلت دكّانه تبحث عن طعام،

فلم تلقَ ما تأكله، مهما يكن،

إلّا مِبرداً من فولاذ، راحت

في الحال، تحاول مضغَه

فقال لها المبرد، دونما غضب:

ما الذي -يا جاهلة- تحسبين

أنك تفعلين،

مهما حسبت أن شدقك صلبٌ قويّ،

يا حيّةً مأفونة؟!

قبل أن تحصلي مني

على ربع درهم تضيفينه إلى ذهبك،

فإن أنيابك كلَّها ستتكسَّر،

أمّا أنا فلا أخشى سوى أنياب الدهر».

إيّاكم أخاطب، أيَّتها العقول المتخلِّفة!

أنتم الذين لا تتقنون شيئاً،

فتبحثون عمّا تعضّون،

أنفسَكم تعذِّبون، بلا طائل.

أتحسبون أن لأنيابكم أن تترك أثراً

في الروائع العظيمة؟

كان أجدى لو عضضتم

النحاس أو الحديد أو الماس!.

الحمار في جلد الأسد

لبس الحمار جلد الأسد،

ولم يبق أحد لم يُخدَع به.

وإذا بهذا الحيوان التافه

يُرعب أهل الريف جميعاً!

إلى أن شاء سوء الطالع له

أن برزت، من لبدة الأسد،

أذن الحمار الطويلة،

فأدرك المخدوعون كم كانوا مخطئين!

فجاءه أبو جاسم بالعصا،

وهوى بها على كَفله وقفاه.

ودُهِش كلّ مَنْ لم يكتشفِ الخديعة

لرؤية أبي جاسم يسوق الليث،

كل صباح، إلى المطحنة، بعصاهْ!.

ما أكثر ما نرى ذوي الدجل

يؤكِّدون هذا المغزى! كلّ يوم،

يعرضون للعيان أبهى ما لديهم من حُلل؛

وما ثمّة، تحت الحلل، إلا الجبن والغباء.

الديك، والهرّ، والفأر الصغير

فأرٌ صغير عديم التجربة، غامر بنفسه وخرج، لأوَّل مرّة،

من مسكنه، فإذا هو يلقى

ما كاد يهلكه، وهرَولَ عائداً

إلى أمِّه، يروي لها ما حدث:

«ما كدت أعبر سلسلة الجبال التي

تحدّ أرضنا، متبختراً مرفوع الذيل،

أشبه بجرذ مزهوٍّ بأوّل لقاء له،

حتى رأيت مخلوقَيْن عجيبَيْن؛

أحدهما وديع، دمث، لطيف،

والآخر، شرس، وأهوج،

ذيله كمروحة من الريش،

وصوته حادّ رفيع، وعلى رأسه

لحمة حمراء تترنَّح وترتعش.

وعلى جانبيه، راح يرفرف

بما يشبه الذراعَيْن؛ لترفعاه في الهواء،

(هذه هي الصورة التي رسمها

«ميكي» المسكين كما لحيوان،

لم يرَ أحد مثله، من قبل،

وهو لم يكن -في واقع الأمر- إلّا ديكاً، رأه الفأر، لأوَّل مرّة)

ثم أردف «ولقد أرعبني، ياأمّاه،

وهو يضرب جنبيه بذراعَيْه الغريبتَيْن،

ويطلق الزعيق والضجيج، حتى أتى.

أنا الذي ما حسبت نفسي، يوماً، جباناً،

أطلقت سيقاني للريح مرتعباً، عن حقّ،

لاعناً إيّاه، لأنه حالَ دوني

ودون اقترابي من المخلوق الآخر، الذي

سحرني بمظهره الوديع:

كان معطفه مخمليّاً، كالذي نرتديه،

أنا وأنت، يا أمّاه، لكنه ملوَّن،

وله ذيل طويل، وفي عينيه،

رغم التماعهما، يتمثَّل التواضع والبساطة.

أغلب الظنّ أنه من أقارب سيِّدي

الجزذون وزوجته؛ فأذناه، على الأقلّ،

في شبه الآذان منّا، تماماً.

دنوت منه لأخاطبه، حين نهرني

الحيوان الآخر بزعيقه المزعج، وباعدَني».

فقالت الأمّ: «صاحبك الذي

وجدته وديعاً متواضعاً

هو الهرّ، يا بنيّ؛ عدوُّنا الأكبر.

وهو –وراء بسمته الخدّاعة– يختفي.

الثعلب والقرد

قضى الأسد نحبه،

بعد أن حكم الغاب سنيناً طويلة.

واجتمعت الحيوانات لانتخاب ملك جديد.

وجيء بالتاج من موضعه الذي

تحرُسه فيه التنانين، ليلَ نهار،

وراحت الحيوانات تجرِّبه،

فتراه لا ينسجم مع أيّ رأس لها؛

هذا الرأس صغير عليه، وذاك كبير،

وذوات القرون احتارت به، دون طائل.

وجرَّب القرد حظّه، تفكُّهاً،

ووضع التاج على رأسه وهو يضحك،

ثم دحرجه أرضاً، وقفز من خلاله،

فافتتن الجميع بنكاته وشعوذاته

وأحبّوه كلّهم، وانتخبوه ملكاً، بالإجماع،

وقدموا له الطاعة مبتهجين.

وحدَه الثعلبُ، لم يرق له ما جرى،

ولكنه لم يعبِّر عن اعتراضه.

وقدم للقرد مديحه،

ثم قال: «يا مولاي، ثمّة كنز من ذهب،

لا يعرف مكانه أحدٌ سواي.

والشرائع تنصّ

على أن الكنز من حقّ جلالتك».

صاحب الجلالة، سال لعابُه لذكر الذهب،

وراح، مهرولاً، إلى حيث أشار الثعلب.

وإذا هو فخٌّ، وقع فيه!

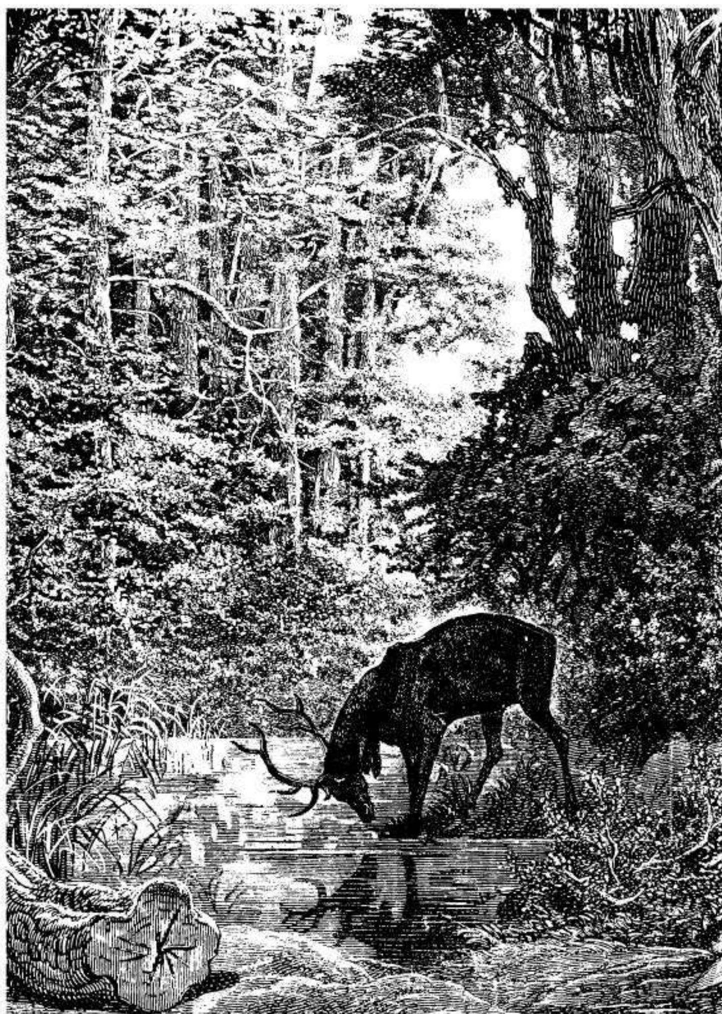
فقال له الثعلب قولاً جرى مثلاً بين الناس:

«تعلَّمْ حُسْنَ التصرّف بذاتك،

قبل التصرُّف بحكم غيرك».

وخُلِعَ القرد، واجمع الكلّ قائلين:

ما أندر الرؤوس الخليقة حقّاً بالتيجان!.



الغزال الذي رأى نفسه في الماء

في غدير، كالبّلور صافٍ،

تأمَّل الغزال صورته، ذات مرّة،

فأعجب بجمال قرنَيْه الطويلَيْن كالأغصان،

ولكنه لم يتحمَّل -إلّا مكرهاً- مرأى

سيقانه الأربع الهزيلة،

وصورتها تتلاشى في المياه:

«أيّ تناسب هذا بين رأسي وظلفي!»

قال الغزال، وهو يتمعَّن -مهموماً- بظله:

«جبهتي على الصفصافة تشمخ،

ولكن أرجلي معرَّتي.

وإذ هو في خواطره هذه،

سمع كلابَ الصيد تنبح،

فارتعب، وراع يعدو بين الأشجار

وإذا فروع قرنيه الجميلَيْن

تكبح ركضَه، في كلّ لحظة،

وتَعيقُ سيقانَهُ التي هي عمادُ حياته،

فسحب الكلام الذي قاله،

ولعَنَ الطبيعة التي

تزيد قرنيه شعاباً، كلّ سنَهْ.

نُثمِّن الجمال دوماً، ونُبخس قدَر ما يفيدنا.

وفي الجمال، كثيراً ما يكون دمارنا؛

فغزالنا انتقد السيقان التي تسرع به،

وامتدح القرون التي تكبحُهْ[1].

(1) لا يقول «لافونتين»، هنا، إن كان الصيادون قد أصابوا الغزال. أمّا «إيسوب» فيقول –نصّاً– أنهم أصابوه.

الأرنب والسلحفاة

«لا فائدة من الركض، إن لم تبكِّر في الشروع»،

وهذا ما سيثبته الأرنب والسلحفاة

في حكايتي هذه:

قالت السلحفاة البطيئة: «أراهن على أنك

لن تبلغ ذلك الهدف قبلي!»،

فأجاب الأرنب السريع: «أأنت تتحدِّينني؟

ثرثارة أنت، وتهذين، وعليك بدرهم

من دواء ينقذك من هذا الجنون».

قالت: «أأنا أهذي؟ فلنراهنْ!».

قال: «رضيت!».

واتَّفقا على الرهان، وعلى من يحكم بينهما

(وما همَّني مَنْ كان الحَكَم بينهما[1])

وكان الهدف على بعد أربع قفزات أو خمس،

من الأرنب؛ قفزاته تلك التي،

حين يلحق به من يريده صيده،

يمرق بها كالسهم إلى السنة القادمة،

مخلِّفاً الصيّاد، أميالاً، وراءه.

وهكذا، إذا كان لديه من الوقت كثير

لنومةٍ أو نومتَيْن، وشيء من قرض الحشيش،

هنا وهناك، والإصغاء للنسمات

ليعرف من أين تهبّ،

سمح للسلحفاة بالانطلاق في السباق،

بخطوها الرصين الوقور.

(1) لعلّ «لافونتين» يراعي بهذه العبارة، أستاذه الأوَّل «زيسور»؛ مصدر هذه الحكاية والكثير غيرها، حيث يقول إن الحَكَم كان الثعلب.

أمّا هي، فكانت عازمة على كسب الرهان،

وراحت -على بطئها- تواصل السير ولا تلفّ،

والأرنب يسخر من القضيّة كلّها،

لا يرى في الكسب مجداً له،

ويحسب أن كرامته تقتضي الشروع متأخِّراً،

فأدار ظهره للطريق، وعضَّ عشبة هنا،

وأخرى هناك، وأخذ غفوة بينهما،

ثم غفوة أخرى، وذهنه مشغول بكلِّ شيء

إلّا السباق بينه وبين السلحفاة.

إلى أن رأى أنها قد كادت تبلغ الهدف.

عندها، انطلق كالسهم، ولكن

بعد أن فات الأوان؛

فالسلحفاة كانت قد أدركت النهاية،

وخرج الأرنب خاسراً.

وقالت له السلحفاة: ألم أقل لك إنني

سأسبقك؟؛ فالسرعة لا تُكسِب شيئاً

لمن كان -في الأصل- متراخياً.

أنا الأولى! ليت شعري، كيف تكون حالُك

لو أن على ظهرك -أيضاً- بيتاً تحملُهْ؟!.

الفلاح والثعبان

قرأت في كتابات «إيسوب»

أن فلّاحاً رقيق القلب،

كان يتمشّى، في صباح شتائيّ،

على حدود مزرعته،

فلمح على الأرض المكسوّة بالثلج

ثعباناً ممدداً، منجمداً، خَدِراً،

فاقداً القدرة على الحركة.

ولو تأخَّر عنه عشر دقائق،

لكان الموتَ -حتماً- مصيره.

التقطه الفلّاح، وحمله إلى مسكنه،

ودون أن يفكِّر في جزاء لمعروفه،

وضعه على الأرض. قَرَّ النار،

وفرك ظهره وبطنه؛ ليعيد إليه الحياة.

وماكاد الثعبان يستشعر الدِّفء

حتى عاوده النَّفَس، والحقدُ معاً،

فرفع رأسه الصغير، وفحَّ،

ودوَّرَ جسمه في حلقة، مصوِّباً نفسَه

للهجوم على منقذه، صديقه، بل أبيه!.

وعندها، صاح القروي «أهذا جزائي،

يا ناكر الجميل؟ فلتمتْ، إذن!».

وبغضبة الكريم أمسك فأسه،

وهوى بها عليه، بكلِّ عزمه، مرَّتَيْن،

جاعلاً من الثعبان ثلاثةً:

الرأسَ، والوسطَ، والذيل.

وراحت الأجزاء تلوب وتتلوّى،

لكيما تتوحَّد، من جديد، عبثاً.

ماأجمل فعل الخير والإحسان!

ولكن، لمَن؟ هذا هو السؤال.

أمّا الجاحد للجميل

فلن يموت إلا ميتة البؤس والهوانْ.

الأسد المريض والثعالب

مرض ملك الوحوش، يوماً،

فأصدر من عرينه أمراً،

لكلِّ عشيرة تَدين بحكمه،

أن توفد إليه، في الحال،

وفداً يعوده؛ ليواسيه في عِلّتِهْ

وأُصدرت جوازات السفر

بمراسيمَ تحمل ختمَه الملكيّ

وبصمةَ مخلبه، مخطوطةً

بأبدع الخّط، ضماناً للقادمين

وحاشياتهم، بأنهم

في مأمن من كلّ أذى،

من الكواسر والضواري.

وأسرع الجميع في طاعة الأمر،

وأَوْفدت كلّ عشيرة سفراءها،

فيما عدا عشيرةَ الثعالب،

فقد مكثت في منازلها،

وأُرسل واحد منها يشرح السبب،

قائلاً: «آثار الأقدام والأظلاف،

لكلّ من انصاع واستجاب،

تشير - بلا استثناء- أنها

في اِتّجاه العرين، ولكن

ليس ثمّة أثر، ولو واحد،

يشير إلى العودة منه؛

وهذا ما يبعثنا على الرِّيبة والحذر.

ونحن لن نسيء استعمال الجوازات،

التي أرسلت إلينا، غير أننا،

بكلّ تواضع، نرجو منكم عذرنا،

فالدخول إليكم لا شكَّ فيه،

أمّا السؤال فهو: كيف نخرج من عندكم؟».

www.jadidpdf.com

الدجّال

لم تخلُ الدنيا، يوماً، من الدجل.

وهو فنّ له، في كلّ عصر،

أصحابُهُ ومجيدوه:

بعضهم من على المسرح

يستحضر الموتى،

وبعضهم، من على كلّ منبر،

يدفق لفظاً، لا يجاريه فيه

واعظ أو خطيب.

واحد منهم أعلن، يوماً، لأهل المدينة،

أنه سيِّدُ النثر والمنطق،

وبوسعه أن يلقّن أيّ غبيّ،

أو أبله، أو أخرق،

علمَ البديع والبلاغة، قائلاً:

«أيُّها السادة، أحضروا لي

مهرّجاً، أو حيواناً، أو حماراً،

بل أحضروا لي حماراً

من أَحْمر ما خلق الله في البلد

أعلِّمْه في الصف، عندي،

وأُخرِجه لكم حاملاً شهادة الدكتوراهْ!».

سمع الملك هذا الكلام،

فأمر بإحضار هذا الخطيب إليه،

وقال له، ممتحناً قدرته وبراعتُه:

«عندي حمار من الطراز الأوَّل.

أريد منك تدريبه

على النقاش والمناظرة».

فأجاب «مولاي:إرادتكم هي القانون

فإذا تفضَّلتم بدفع الأجور مقدَّماً

أعِدكم أن حماركم هذا،

في عشر من السنين، لا أكثر،

سأجعله قادراً على النقاش مع أكبر المفكِّرين

وإذا أخفقتُ، لكم أن تربطوا

كتابي إلى صدري، وتلبسوني أُذنَيْ حمار،

وتعلّقوني من عنقي، في ميدان المدينة».

فقال له واحد من رجال البلاط:

«أرجو الله أن أكون هناك لأراك؛

فإن رجلاً، بهيبتك وضخامتك،

سيكون للناس مشهداً رائعاً،

وهو يتأرجح من حبل المشنقة!

ورجائي ألّا تنسى أن تُتحفنا

بخطبة أخيرة، تضع فيها

فنّك كلّه، وفصاحتك، قدوة

لهؤلاء الخطباء المزعومين، الذين

لا يحصى عدُّهم، ويسمِّيهم الناس بالدجَّالين».

فقال صاحبنا، وهو يهزّ الرأس، واثقاً:

«يؤسفني أنني سأخيّب رجاءك

ففي السنين العشر القادمة،

إمّا أن يموت الملك، أو يموت حماره،

أو أموت أنا».

وكانت تلك ملاحظة منطقية؛

ففي هذا القدر من السنين،

لابدّ أن يقضيَ واحدٌ من الثلاثة

إذن، كلوا وامرحوا، مادام لكم -في ذلك- متَّسع!.

القرويّة وجَرّة الحليب

غدت بدرية، وعلى رأسها جَرّة حليب،

ركزتها على وسادةٍ صغيرة،

تُسرع بفتيّ الخُطى إلى السوق

ما همَّها ترابٌ وطينٌ تمرض عليهما،

بنعلها الرقيق خفيفة مهفهفَهْ.

وراحت الفتاةُ -سارحةَ الفكر- تقول:

سأبيع الحليبَ، وبسعرهِ

أشترى مئة بيضة.

وفقس البيض فراخًا في خيالها،

وهي تعرف كيف تفقس البيض، بسرعة!

وقالت: سأربّي الفراخ في حوشنا،

ومهما أمعن الثعلب فيها، بخبثه

فسيبقى لديَّ ما أشتري به نعجة صغيرة

تكبر، ثم تكبر، فأبيعها

بقرةً وعجلَها. اني لأراهما

يطفران طفراً جميلاً بين الخراف!

وبنشوة من خيالها ذاك،

طفرت بدريّة مثلها، وإذا يا ويلها!

تقع الجرّة ارضاً، ووداعاً، عندها،

للعجل والبقرة. وداعاً للنعجة والفراخ.

وبكت بدرّية لمشهد الفاجعة،

وعادت إلى المزرعة

لتشرح الأمر لسيِّدها، وهي تعلم

ما في انتظارها من «علقة» ساخَنهْ.

يا قصوراً في الهواء،

مَنْ منّا لا يبنيك وهماً، عبثاً؟

شِراكٌ نُصِبت لكلّ مجنون، وعاقل،

لكلّ امرئٍ أحلامه في اليقَظَة،

أفراحه التي يطوي عليها صدرَه،

إذ تفتنهُ أكذوبة لذيذة،

ويتراءى له أنه سيّدُ الدنيا وألاعيبها،

أموالها، ونسائها.

كلَّما كنتُ بمفردي، كنتُ الجريءَ المغامر

أمشي في الأرض عتيّا

أنتفُ لحية أكبر شيخ في المحلّة،

بل أنا الملك المفدّى من رعيّةٍ تعبدني،

والدنانير تُمطر عليّ من السماء.

ولكن أقلّ صوت ينبّهني.

وإذا الكلّ يزول، وإذا أنا

ذلك المسكينُ الذي هو -دوماً- أنا!.

الإسكافيّ والتاجر

كان هناك إسكافيٌّ يغَنّي،

من الفجر حتى الليل.

وفي الليل -أيضاً- كان يغنّي،

والناسُ تطرب لصوته الذي

يعلو وينخفض بالشّجَيّ والفرِح،

وهو سعيد بغنائه، كأنه

أحد الحكماء السبعَهْ.

وبجواره، كان يقيم رجلٌ ثريّ

نادراً ما يغنّي، ونادراً ما ينام،

لأنه تاجر تؤرّقهُ

أفكار الربح والخسارة.

وإذا غفا غفوةً قصيرةً، عند الصبح،

أيقظه غناءُ جاره، بعلوِّه ومرحِهْ

ولطالما تساءل: لماذا لم يجعل الله النوم

شيئاً، يشتريه المرء بالذهب،

كالطعام والشراب، فيشتريه؟

دعا التاجر، يوماً، الإسكافيّ

إلى منزله، وسأله: «جاري العزيز،

كم دخلك، بالدنانير، في السنة؟»

فضحك الآخر قائلاً: «في السنة؟

سيِّدي، هذه ليست طريقتي في الحساب.

وهل أرهقُ فكري بالجمع والطرح، كلّ يوم؟

إنما أنا أعمل، وأستمرّ

وأعدّ نفسي رابحاً، حين أجد أنني،

في نهاية السنة، لست مديناً لأحد».

«إذن»، قال التاجر، «هل لي أن أسألك

كم كَسبُك، في اليوم»؟

أجاب الإسكافيّ «الأيّام لا تتساوى؛

يومٌ فائض، ويومٌ غائض.

وأحمد الله، دوماً، على ما سوف يأتي.

أمّا المشكلة يا -سيِّدي- فهي الأعياد،

أُجبَرُ فيها على الكفّ عن العمل،

والقسُسُ يخترعون قدِّيساً لنا كلّ يوم،

علينا أن نكرّس عيداً لذكراه»،

فقال له الغنيّ: «أَبشر، يا رجل،

سأريحك من عنائك.

هاك، خذ هذا المبلغ، وقدرُهُ

ثلاثمئة قطعة من الذهب،

واحفظه ليوم قد تحتاج فيه إليه».

بُهِر الاسكافيّ لمرأى ذلك القدر من الذهب،

الذي حسبه كلّ ما اكتشفَ الإنسان منه،

في السنين الخمسينَ الأخيرة،

لخدمة البشر. وأسرع إلى داره،

ودفن الكنز في حفرة في الأرض،

ودفن معه غِناءه ومَرَحَه.

وإذ امتلك، الآن، السبب الأول

في شقاء البشرية، فارَقه صوته الطروب،

وفارقه النوم كذلك، فاتحاً عليه الباب

للأوهام المستمرّة والشكوك والمخاوف،

وراح يمضي الليل والنهار في الحراسة،

وإذا ماءَ هِرٌّ أو كلب نبح،

قال إن اللصوص قد هجموا!

يوم يذهب، ويوم يجيء.

وغاضت الأغاني وأفراحها،

حتى انتبه الإسكافيّ لحاله، ذات صباح،

وراح -ركضاً- إلى بيت التاجر «الكريم»

(الذي ما عاد يقلقه غناءٌ

كلَّما نام أو غفا)، وصاح بوجهه:

«خذ قِطعَك الذهبية اللعينة،

وأعِدْ لي غنائي، ونوميَ الهنيّ!».



الأسد، والذئب، والثعلب

أصيب الأسدُ بالنقْرِس، والكُساح،

وكادت السنُّ تبلغ به النهاية،

فأمر أتباعه بأن يجدوا طبيباً

يبتكرُ دواءً يَشفيه من شيخوخته.

وفي بِلاط الملك، لن تسمع احداً

يلفظ كلمة «مستحيل».

وفي الحال، أرسلت كلّ عشيرة طبيبها،

والأطبّاء أنواع، جاؤوا للأسد،

من كلّ صوب؛ أخصائيّون ودجّالون على السواء،

ليعالجوه من سقامِهْ.

وحده الثعلبُ، تخلَّف عن المجيء،

منشغلاً بشؤونه.

وذات ليلة، وجلالةُ الليث يتهيّأ للفراش،

أراد الذئب أن يكسب حَظوةً لديه،

فأشار -بخبث- إلى غياب زميله عن البلاط.

فزأر الملكُ العجوزُ مغضباً:

«يا للوقاحة! اذهبوا وابحثوا عنه،

وأحضروه لي، في الحال».

وجاؤوا بالثعلب، كما أمر،

وقد عَرَفَ الثعلبُ، دونما شكّ.

من هو الذي وشى به عندَ سيّدهْ.

فسلّم، وقبَّل الأرض بين مخلبَيْه،

وقال: «مولاي، هذا الذي يتراءى لكم

أنه الإهمالُ مني، إنّما الحاقدون

جعلوه يبدو لكم

أنه إعراض مني عن احترامكم.

وواقعُ الأمر أني ذهبت في محجّة طويلة؛

نذراً مني لشفاء جلالتكم.

وفي الطريق، بحثتُ مع الحكماء العارفين

أعراض دائكم الذي يُقلقنا -حقّاً- جميعاً،

فأشاروا أن ما عليكم إلّا

أن تنعشوا الحرارة التي بَرّدَتها

السنون في جسمكم، كما يلي:

أن تأخذوا جلدَ ذئب، يُسلخُ حيّاً

وتَلبسوه وهو، بَعدُ حارٌّ يُدخِّن،

فيُلهبُ كوامنَ النار في شرايينكم.

وطبيبكم هذا الذي هنا،

(إن شاءت جلالتُكم)،

في جلدِهِ خيرُ كساءٍ لجسمكم.

وبلع المريضُ النصيحة بسرور،

وأمر قصّاب القصر بسلخ الذئب فوراً،

وكان للملك، في الذئب، عندها،

خيرُ كساء، وخيرُ عشاءْ.

يا رجالَ البلاط، كفّوا عن أذى بعضكم بعضا

تسلَّقوا، ودعوا غيركم يستلّق،

وفي ذلك مصلحة لكم جميعاً

فلكلّ دقّةٍ، تلقَوْنَ دَقّة،

ومَنْ يَعُضَّ غيره، في النهاية سيُعَضّ.

ففي المحيط الجميل الذي تحيَون فيه،

لم يَعتدْ أحد إبداء التغاضي أو المغفرَهْ.

النساء والأسرار

ما السرُّ إلّا عبءٌ ثقيل،

تُسقطُه معظمُ النساء على الطريق.

وفي هذا الشأن، قلَّما اختلف الرجالُ

عن النساء.

أراد رجلٌ امتحان زوجته،

فصاح، ذات ليلة، في فراشه:

«أسعفيني! يا للألم!

سيقتلني، إن عاد ثانية عليّ!

كان الله بعوني، يا امرأة،

لقد بضتُ بيضةً! أيْ، والله!»

فقالت منذهلةً: «بيضة؟»

قال «نعم! انظري، قُربَ ساقي،

بيضة طازجة كأحسن ما يكون البيض!

إياكِ أن تخبري أحداً بهذا،

وإيّاكِ، أبداً، إلّا إذا أردتِ

أن يدعُوني الناسُ بالدجاجة!».

وصدّقت الزوجة ما رأت،

(لم تكن الحياةُ قد عَجَمَت عُودَها، بعد)

وأقسمت اغلظ الأيْمان أنها

لن تكشف الفضيحة -مطلقاً- لأحدْ.

وكان ذلك وعداً، كُتِب النسيانُ عليه،

حالما انبلجت أشعّة الفجر

إذ نهضت من فراشها،

وـ للتوّ- راحت تزور جارتها،

عبر الطريق، لتروي لها ما قد حدث.

وقالت: «أتدرين -يا عزيزتي- ما جرى؟

زوجي، في الليلة البارحة، باض

بيضة بحجم ثلاث بيضات معاً!

سيضربني، إن أنت نطقت

بهذا الأمر لأحد. فبالله عليك،

اكتمي السرَّ مغلقاً في قلبك.

فقالت الجارة تَعتبُ عليها:

«أليس عيباً أن توصيني بالكتمان،

وبقدرتي على الكتمان أنتِ أدرى!؟

لن تفوه بسرِّك شفتاي، لا، والله!»

وعادت الزوجة إلى دارها.

أمّا الجارة، فاشتعل التوق في قلبها

إلى من تحدِّثُه، حتى أذاعت النبأ، همساً،

لكلِّ عابرة في الطريق، وجعلت

البيضة الواحدة ثلاث بيضات،

وجعلتها الأخرى أربعاً،

والكلام مازال همساً.

وفيم الهمس، الآن، وقد ذاع النبأ،

ولم يَعُد سرّاً لأحد؟

ومن فمٍ لفم، بقوّة الشائعة،

تنامت حكاية البيض بسرعَهْ،

وما كادت الشمسُ تغيبُ ذلك اليوم حتى

بلغت مئة وعشرين بيضة!.

الماجن والأسماك

دُعي ماجنٌ إلى الطعام، عند تاجر بخيل،

فلم يجد أمامهُ إلا أسماكاً صغيرة،

ورأى الأسماك الكبيرة في أطباق بعيدةٍ عنه،

فعَزَمَ على تلافي وضعِهِ، بالحيلة:

التقط، بالشوكة، سُمَيكةً،

ثم أخرى، فأخرى، وهَمَس في آذانها.

وبدا عليه الجِدّ، وهو كمن يُصغي إلى جوابها.

فتعجَّب الضيوف، وتساءلوا:

ما هذه اللعبة؟

ولمّا اطمأنَّ إلى انتباه كلِّ مَنْ هُم

حولَ المائدة، قال لهم بلهجة الحزن،

إنه، منذُ مدّةٍ يشعر بالأسى

لمصير صديقٍ له، أبحرَ في مركب إلى بلاد الهند،

ولم يأته منه أيّ خبر.

ثم أردف: «فخطر لي

أن هذه الأسماكَ الصغيرة

قد تُنبئني بشيءٍ عنه، ولكنها،

لصغر سنِّها، ليس لديها ما تقوله،

وهي ترى أن الأسماك الأكبرَ منها،

الموضوعة هناك،

قد يكونُ لديها الجوابُ عن سؤالي؛

فهلاّ سمحتم لي بالتشاور مع إحداها؟»

لا أدري كيف استجاب الصَّحبُ

لنكتته الطريفة، إلّا أنهم

وضعوا في صحنه حوتةً، لها من العمر

ما يمكِّنها من سردِ أسماء المغامرين

في البحار، منذ مئة عامٍ أو أكثر،

ممَّن اقلعوا نحو مجاهل الدنيا،

وغرقوا في لُجَجِ الأعماق المظلمة،

مع العديد من أساطين الأسفار البعيدة،

وراح الماجنُ يأكلُها بنَهمْ.

الصديقان

كان في بلد قَصيّ، صديقان،

يُحبُ كلاهما الآخر، وما يملكه الواحد منهما

يَعُدَّه مُلكاً لصديقه، أيضاً.

فالأصدقاء، في ذلك البلد،

عُرفوا بالوفاء، تماماً، كالأصدقاء الذين

هم حوْلنا، أو هكذا قيلْ!.

في منتصف ذات ليلة،

والناسُ نيام كلُّهم،

استيقظ أحدهما خائفاً،

وقفز من فراشه، وارتدى

ثيابه كيفما اتَّفق،

وانطلق راكضاً إلى دار صديقه،

وقرع بابه قرعاً عنيفاً.

فزَّ صاحبه من الفراش،

لشدَّة الخبط الذي سمعه،

وتناول سيفه وكيس دنانيره،

وأسرع إلى الباب، وفتحه،

وهتف قائلاً: «ما الذي جرى؟

ما عَرَفتك، يوماً، تخرجُ من دارك،

والناسُ نيامٌ آمنون!

لابدَّ أنك قامرت، وخسَرتَ مالكَ كلَّه!

أليس كذلك؟

هاك كيساً من الذهب،

أم أنك كنتَ في شجار،

وتريدُ قتالَ خَصْم أزعجك؟

هذا سيفي معي.. هّيا بنا إليه!»

هزّ صديقهُ رأسه، وقبل أن يُجيب

استأنف صاحبُه السؤال:

«ألعلَّك -إذن- سئمتَ النومَ بمفردك؟

عندي جاريةٌ جميلة، سأرسلها إليك».

فقال الصديق «لا، لا..

إنك تُحرجني بطيبتكَ وكرمك،

ولكن تخمينك ليس في مكانه.

لقد حلمتُ بك، ورأيتك في الحُلُم

مضطرباً وبائساً،

فخشيت أن تكونَ -فعلاً- كذلك،

وجئتك راكضاً.

ضع اللومَ على حلمي اللعين!».

من منهما كان أكثر حبّاً للآخر؟

إن الصديق الوفي كنزٌ لا يُثمَّن؛

فما غايتُه إلا أن يَسُرَّك

وإن أنتَ سألتَه: كيف؟

لن تجدَهُ محتاراً في الجواب؛

قلبهُ ينبئه ما الذي يتمناه قلبُك.

الأسد، والذئب، والثعلب

طلب الأسد إلى الذئب والثعلب

أن يشاركاه في الصيد وفي الغنيمة،

فرضيَ الاثنان، وفَرِحا

بما سيحظيان به، مع الأسد، من فرائس،

وخرجوا جميعاً للصيد في الغاب.

وسرعان ما عادوا بحمار وغزال وأرنب؛

حصيلة الجهد والدَّهاء والشجاعَةْ.

وقال الأسد للذئب

«هات أَرِني حكمتك،

واقْسمِ الصيدَ بيننا».

فقال الذئب: «المسألة بسيطة، يا مولاي.

لكأن ما صدناه مفصّل تفصيلاً علينا:

الحمار لجلالتك، والغزال لي،

والأرنب للثعلب».

فغضب سلطان الغاب،

وزأر قائلاً: «يا للقسمة السخيفة!»

وخبط الذئبَ بمخلبه خبطة

أطارت رأسه عن جسده،

ودحرجته بعيداً في التراب.

وقال للثعلب: «والآن، أرني حكمتك أنت. هيّا، اقسم بيننا».

فقال: ما أبسط الأمر، يا مولاي،

وما أوضحه لكلِّ عين!

الأرنب لفطورك، والغزال لغدائك،

والحمار لعشائك..»

فابتسم الأسد لشريكه، وهتف:

«أحسنت! من الذي علّمك هذه الحكمة؟»،

فأجاب الثعلب:

«رأس الذئب الطائر هناك...».

البلّوطة والقرعة

حَسَنٌ كلُّ ما خَلَقَ الله في كونه؛

وللبرهانِ على ذلك، ما بي حاجةٌ

لأن أجوب دنيا الله الواسعة،

وحَسْبي حكايةُ القرعة التي

حيرَّت عقلَ أبلهِ القرية، ساعةً أو ساعتَيْن.

التفت الأبلهُ، وهو يمشي ذات صباح،

إلى قَرْعة كبيرة اتَّصلت بساقها الرفيع

على الترابِ، فقال:

إن المكانَ المناسبَ لتعليق شيء ضخم كهذا،

هو إحدى أشجار السنديان تلك،

فالثمرةُ على شاكلة الشجرة.

والبلّوطة التي تكادُ لا تكبُرُ حجم إبهامي

مكانها هنا، على هذه النبتةِ الرقيقة.

والقرعةُ مكانها الصحيح على السنديانة.

وكلّما تمعّنتُ في الأمر، قال عقلي

إن ثمّة خطأً ما، ولكن كفى!

لا تتعمَّق في الأفكار، يارجل،

وإلّا أبقاني هذا العقلُ في يقَظَةٍ لا تنتهي!»

وفي الحال، قَعَدَ أرضاً تحت السنديانة،

وغرَق في نومٍ عميق.

وسقطت بلوطة، وأصابته في أنفِه

فاستيقظ، ورفع يدَهُ خائفاً مذعوراً،

ووجد البلّوطة محشورةً في لحيتهِ،

فصاح «آخ، إن دمي ينزف!

أيُّ بلاءٍ كان سيحلّ بي

لو أن هذه الثَمَرَة الصغيرة

كانت تلك القرعة الكبيرة؟!

لم يشأ ربّي ذلك، وكان هو الحقّ.

وإني، الآن، لأرى حكمتهُ وعَدْلَه في ما خلق!»

وعاد إلى بيته في غاية الفرح، إذ اقتنع

بأن دنياه مُحْكَمةُ الصُّنْعِ، حقّاً، وبلا خطأ.

الراعي والملك

ثمّة شيطانانْ يتحكَّمان بتحوُّلاتنا،

ويطردان العقلَ من ميراثه،

وما عرفت قَطّ قلباً لا يحرِّكانه.

فإن سألتني عن اسم كليهما وصفاته،

قلت لك: أحدهما يعني «الطموح»، والآخر

«الحبّ».

والطموح واسع الاثنين سلطاناً،

لأن الحبَّ يضطرّ لأن يَعنُو له، ويطيعه.

ولسوف كنت يلذّ لي الحديث عن خضوع الحبّ هذا،

لولا أن عليّ أن أكفّ،

فحكايتي، اليوم، تدور حول ملك دعا راعياً

إلى بلاطه، وذلك في سالف الأيّام الجميلة،

وليس في القرن الذي نعيش فيه.

كان الملك في موكب له، حين رأى

قطيعاً من الأغنام النظيفة المهندمة،

أجاد الراعي رعايتها وإرضاءها،

ويستخرج وفيرَ الربح منها كلّ سنة.

و -تأكيداً على استحسانه- دعاه الملك إليه،

وقال له «إنك -يا صاحِ- تهدُر قدرتك وبراعتك.

تعال، دع عنك خِرافك، وارعَ البشر...

لقد عينتك قاضياً على الناس، في مملكتي».

انظر، الآن، إلى الراعي، وميزان العدالة في يده!

ورغم أن الذين عرفهم قبل ذلك، في حياته،

لم يكونوا إلا الأغنام، والكلاب، والذئاب،

وناسكاً طعنت به السنون،

فقد كان راشد العقل،

(والحكمةُ كلُّها في العقل والرشاد)،

ووُفِّق فيما أُوكِلَ إليه، بإقرار من الجميع.

جاء الناسك ليراه، وفرَك عينيه،

وصاح: «أفي يقظة أنا، أم في حُلمُ؟

أأنت من خُدَناء الملك،

وأحد أركان الدولة؟

إيّاك والثقة في الملوك!

رضاهم زَلق. ولطالما كَلَّف المخدوعين

هذا الرضا، غالياً؛ فوقعوا شرَّ وقعَهْ.

قد لا تعلم -يا بنيّ- ما أخطر الطريقَ

المحفوفة بالأوراد هذه، التي أنت سائرٌ فيها.

ولتقبل التحذير مني، فأنا صديقك!».

ابتسم الراعي لكلامه، فأردف الزاهد:

«أترى كيف انتشيت بجوِّ البلاط!

أذكر، الآن، مسافراً مكفوف البصر،

إذ راح يتعثَّر في سيره، أحسّ بقبضته

ثعباناً قد تجمَّد من البرد، فظنَّه سوطاً

(وكان سوطه قد سقط من حزامه)،

وحَمَد الباري على لقياه تلك، وهو في حاجته.

ولكن مستطرقاً رآه، وصاح به:

«العياذ بالله! أسقِط من يدك، يا رجل،

ذلك الثعبان الغدّار!».

قال: «بل إنه سوط!»، فصاح الآخر:

«أبداً! لماذا أهيب بك وأصرخ،

لو كان كذلك؟ أتنوي أن تبقيه كالمال، في يدك؟»

قال: «وما الضرر؟ فقدتُ سوطاً قديماً، وعثرت على سوط جديد.

وما الدافعُ إلى صيحتك إلا الحسد!»

ولمّا دفئ الثعبان، لدغَه في ذراعه،

وأرداه قتيلاً، في لحظات...

- ثمّة مصير أرهب من هذا، في انتظارك.

فصاح الراعي: «وأيّ مصير ارهب من الموت، يمكن أن يكون في انتظاري؟»

أجاب الحكيم: «ألف كربٍ، وألف غَمّ.

وسرعان ما اكتشف الرجل صواب هذا القول.

فقد تآمرت حثالات البلاط على

زعزعة ثقة السلطان في عدل قاضيه،

لإسقاطه بالدسيسة والنميمة،

وحرَّضوا الخاسرين، في قضاياهم،

على التشهير به، زاعمين أنه، بأموالهم،

قد بنى قصراً بالغ البهرجة والترف.

فثارت في الملك ثائرته، وصمّم على

رؤية دليل الجرم هذا، وذهب لزيارتِهْ.

وإذا هو في منزل عار، نظيف،

منزل امرئٍ يجد الخير في الفَقر والوحدة،

وليس غيرهما له من محتوى.

فقال الشاتمون «إنه يجمع الجواهر،

ويخزنها في ذلك الصندوق الكبير

ذي الأقفال القويّة العشر!»

وتقدَّم الملك، بنفسه، من الصندوق،

وبيده فكَّ الأقفالَ كلَّها.

واضطرب السادة الكذّابون؛

ففي ذلك الصندوق الغامض، لم يروا

إلا عباءةَ الراعي المهلهلة،

وثوبَه المخرَّق، وغطرة رأسه،

وجرابَ طعامه، وعصاه.

أجل، والنايَ الذي كان، يوماً، يجيد عزفه!.

نظر إليها القاضي نظرة الشوق،

وهتف: «يا صحبي القدامى!

يا عربوناً لليوم الذي تجعلني فيه

الأكاذيب ونواغر الحسد أروح في سبيلي،

عودوا إليَّ!،

ولنغادر الحكمَ والسطوة،

كمن يستفيق في الصباح من حلم الليل...

مولاي الملك، غفرانك! لقد حدست،

يومَ صعدت الأعالي، بأنني

لابدَّ، يوماً، سأسقط.

تعلَّقت بالأعالي،

وهل من قلب يخلو من الطموح؟

ولكنني احتفظت بصندوقي هذا، ليوم السقوط.

وها قد جاءتني حاجته!».

الشيخ والفتيان الثلاثة

«أَشَيخٌ في الثمانين، ويزرع؟!

لو أنه في سنِّهِ يشيِّد داراً لهان الأمر،

أمّا أن يزرع الأشجار؟».

هذا ما راح يتقوَّل به ثلاثة فتيان،

جاؤا من مزرعة مجاورة.

وقالوا: «شيخنا ما عاد يعقل.

وخاطبه أحدهم بقوله:

«ما الذي -ياعمّاه- تلقاه جزاءً

على أتعابك هذه؟ إلّا إذا كنت تتوقَّع

من العمر مئات من السنين.

لماذا تجهِد ما تبقى لك من حياة

لخدمة مستقبل، لن تبصره عيناك؟

لماذا لا تجعل همّك الحديث عن ماضيك،

وتترك لنا، نحن، الأمل الموعود،

والحلم الكبير؟ إنهما نصيبنا.

«أهذا ما تحسبوه؟» قال الشيخ

«في كلّ مسعى للبشر، يأتي النجاح متأخّراً،

وسرعان ما يزول.

ويد القدر الشاحبة إنما تعبث

بخيوط حياتنا، كيفما اتَّفق.

ومن ذا الذي سينبئنا

أن ما كُتِب لكم، من أيّام، أكثر عدّاً

ممّا كُتِب لي. ومن منّا

سيكون آخر من تُمَتَّع عيناه

برؤية ألوان الأصيل؟

تتكّ الساعة دقيقة. أنعلم -يقيناً- أننا

سنسمع تكّاتِ الدقيقة التالية؟

عندما تكبر أشجاري هذه،

سيذكرني، بالخير، أولاد أولادي،

كلَّما تفيَّأوا بظلالها.

وهل ثمّة شريعة تمنع الحكيم

من العمل، من أجل لذّة ستكون للآخرين؟

وجزائي اليوم، و-ربَّما- في الغد، أيضاً،

أن أتخيَّلَ مُتَعاتِ أحفادي... ومن يدري؟؛

لعلني قد أرى الفجر، مرَّة أو مرَّتَيْن،

يطلع على قبر واحدٍ منكم، يا صبيتي؟»

وشاء القدر أن يَصدُقَ الشيخ:

أحد الفتية سافر عبر الأطلسي،

وغرق في مياهه،

وتعطّش الثاني لمجد العسكري،

وبرصاصةٍ طائشةٍ، لقيَ المسكينُ مصرعه.

والثالث، راح، يوماً، يشذِّب شجرة

من غير حذر، فسقط عنها، ووافاه الأجل.

وبكاهم الشيخُ جميعاً، وعلى ضريحهم

نقش سطور هذه الحكاية الغريبَهْ.

الثعلب، والذئب، والحصان

ثعلب صغير في السنّ، ولكن كثيرُ الحيَلْ

رأي حصاناً، لأوَّل مرّة، فراح راكضاً

ليخبر صديقه الذئب (وهو مثله، في السنّ،

حَدَثْ)

قائلاً له: أسرعْ، أسرعْ، لترى العجب!

أكبر وأروعُ مخلوقٍ، رأته عيناك،

يرعى في حقولنا!»

فسأله الذئب كاشفاً أنيابهُ، بابتسامة:

«أَنِدٌّ لنا؟ ارسم لي صورته».

أجاب الثعلب: «لو كنت ربَّ الريشة والقلم

لما استبقت الأمر عليك

بوصف ما سوف تلتذّ برؤيتِهْ.

هيا معي. من يدري؟؛

لعل السماءَ أرسلته إلينا لافتراسه؟»

وذهبا معاً.

لمحهما الحصان، وهو يرعى، وما همَّهُ

أن يقيم صداقةً مع مخلوقَيْن مثليهما،

وأراد العودة من حيث أتى.

ولكن الثعلب خاطبه:

«أيُّها الأمير، نحن -خادميك- نودّ لو

تذكر لنا اسمك الكريم.»

وكان للحصان شيء من العقل،

جعله يقترح عليهما أن يقرَأا اسمه المكتوب.

وقال: «انظرا، لقد حفر الحدّاد اسمي

على حافري.

فاعتذر الثعلب بأنه أمّي،

ما تعلَّمَ قَطّ الألف باء، قائلاً:

«لم يسمح الفقر لوالديّ بتعليمي،

وما لهما من مالٍ أو عقار إلا وكرهما.

أمّا آلُ الذئب فذوو نعمة،

وقد علَّموه القراءة والكتّابة.»

سُرَّ الذئب لذلك الإطراء،

وتقدَّم من الحافر المحترم،

وكلَّفَه غرورُه أربعاً من أسنانه القواطع،

إذ رفسه الجواد الماكر في بوزه،

وانطلق يخبُّ بعيداً عنهما،

وقد سقط الذئب أرضاً،

والدمُ ينزف من وجهه المهشَّم.

وهتف له الثعلب بصوت يسمعه:

«أثبتَ هذا الحادث، يا عزيزي،

حكمة القول المأثور الذي

نقشه، على شِدقيكَ، صاحبُنا:

إنَّما العاقلُ مَنْ لا يأتمن أمراً يجهلُهْ.».

الفهرس

إصدارات سلسلة كتاب الدوحة

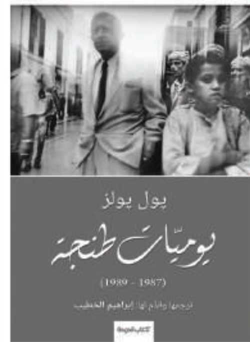
1	طبائع الاستبداد	عبد الرحمن الكواكبي
2	برقوق نيسان	غسان كنفاني
3	الأئمة الأربعة	سليمان فياض
4	الفصول الأربعة	عمر فاخوري
5	الإسلام وأصول الحكم - بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام	علي عبدالرازق
6	شروط النهضة	مالك بن نبيّ
7	صلاح جاهين - أمير شعراء العامية	محمد بغدادي
8	نداء الحياة - مختارات شعرية - الخيال الشعري عند العرب	أبو القاسم الشابي
9	حرّية الفكر وأبطالها في التاريخ	سلامة موسى
10	الغربال	ميخائيل نعيمة
11	الإسلام بين العلم والمدنيّة	الشيخ محمد عبده
12	أصوات الشاعر المترجم - مختارات من قصائده وترجماته	بدر شاكر السياب
13	امرأتنا في الشريعة والمجتمع	الطاهر حداد
14	الشيخان	طه حسين
15	ورد أكثر - مختارات شعرية ونثرية	محمود درويش
16	يوميات نائب في الأرياف	توفيق الحكيم
17	عبقرية عمر	عباس محمود العقاد
18	عبقرية الصدّيق	عباس محمود العقاد
19	رحلتان إلى اليابان	علي أحمد الجرجاوي/صبري حافظ
20	لطائف السمر في سكان الزُّهرة والقمر أو (الغاية في البداءة والنهاية)	ميخائيل الصقال
21	ثورة الأدب	د. محمد حسين هيكل
22	في مديح الحدود	ريجيس دوبريه
23	الكتابات السياسيّة	الإمام محمد عبده
24	نحو فكر مغاير	عبد الكبير الخطيبي
25	تاريخ علم الأدب	روحي الخالدي
26	عبقرية خالد	عباس محمود العقاد
27	أصوات الضمير	خمسون قصيدة من الشعر العالمي
28	مرايا يحيى حقي	يحيى حقي
29	عبقرية محمد	عباس محمود العقاد
30	عبدالله العروي من التاريخ إلى الحب	حوار أجراه محمد الداهي
31	فتاوى كبار الكتّاب والأدباء في مستقبل اللّغة العربيّة	مجموعة مؤلفين
32	عام جديد بلون الكرز (مختارات من أشعار ونصوص مالك حداد)	ترجمة: شرف الدين شكري
33	سِراج الرُّعاة (حوارات مع كُتاب عالميّين)	خالد النجار
34	مقالة في العبودية المختارة (إيتيان دي لابويسيه)	ترجمة: مصطفى صفوان
35	عن سيرتَي ابن بطوطة وابن خلدون	د.بنسالم حِمّيش
36	حي بن يقظان - تحقيق: أحمد أمين	ابن طفيل
37	الإصبع الصغيرة - ترجمة: د.عبدالرحمن بوعلي	ميشال سار
38	محمد إقبال - مختارات شعرية	محمد إقبال
39	تزفيتان تودوروف (تأمُّلات في الحضارة، والديموقراطية، والغيرية)	ترجمة: محمد الجرطي
40	نماذج بشرية	أحمد رضا حوحو
41	الشرق الفنّان	د.زكي نجيب محمود
42	تشيخوف - رسائل إلي العائلة	ترجمة: ياسر شعبان
43	إلياس أبو شبكة «العصفور الصغير»	مختارات شعرية
44	لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟	الأمير شكيب أرسلان
45	مختارات من الأدب السوداني	علي المك

46	رحلة إلى أوروبا	جُرجي زيدان
47	المُعتمدُ بنُ عبَّاد في سنواته الأخيرة بالأسر	د.عبدالدين حمروش
48	تاريخ الفنون وأشهر الصور	سلامة موسى
49	من أجل المسلمين	إيدوي بلينيل - ترجمة: عبداللطيف القرشي
50	زِينة المعنى (الكتابة، الخط، الزخرفة)	يوسف ذَنّون
51	الواسطة في معرفة أحوال مالطة	أحمد فارس الشدياق
52	النخبة الفكرية والانشقاق	د. مُحسن الموسوي
53	ياسمينة وقصص أخرى	إيزابيل إيبرهاردت
54	آباي (كتاب الأقوال)	ترجمة وتقديم: بوداود عمير
55	مأساة واق الواق	ترجمة: عبدالسلام الغرياني
56	بين الجزْر والمدّ (صفحات في اللّغة والآداب والفنّ والحضارة)	محمد محمود الزبيري
57	ظلّ الذّاكرة (حوارات ونصوص من أرشيف «الدوحة»)	مي زيادة
58	الرحلة الفنّية إلى الديار المصريّة (1932) تحقيق: رشيد العفاقي	قسم التحرير «مجلّة الدوحة»
59	قيصر وكليوبترا	أليكسي شوتان -تعريب: عبد الكريم أبو علو
60	الصين وفنون الإسلام	إسماعيل مظهر
61	براعمُ الأمل (مُختارات شِعْريّة للكاتب الصيني وانغ جو جن)	ترجمة: مي عاشور
62	التّوت المُرّ	محمد العروسي المطوي
63	درب الغريب	غونار إيكليوف
64	من والد إلى ولده	أحمد حافظ بك
65	التلـــــميذ	بول بُورجيه
66	ملحَمة جلجامِش	تقديم وترجمة: طه باقر
67	أريجُ الزّهر	الشيخ مصطفى الغلاييني
68	اعترافات إنسان	محمّد فريد سيالة
69	مريود	الطيب صالح
70	المقالات الصحفية	عبدالله كنون
71	قصص قصيرة	نجيب محفوظ
72	بول بولز - يوميات طنجة	إبراهيم الخطيب
73	فنّ الحَياة	سلامة موسى
74	أَقْوَمُ الْمَسَالِكِ فِي مَعْرِفَةِ أَحْوَالِ الْمَمَالِكِ	خير الدين التونسي
75	كتاب الأخلاق	أحمد أمين
76	رِحْلَةٌ جَبَلِيَّةٌ رِحْلَةٌ صَعْبَة	فدوى طوقان
77	قِـطافٌ (مُختَارَات مِن الْقِصَّةُ الْقَصِيرَةُ فِي قَطَر)	مجموعة من الكتاب
78	الرحلة الجوية في المركبة الهوائية (من شرقي إفريقية إلى غربيها) ج: 1	جول غابرييل فيرن، ترجمة: يوسف اليان سركيس
79	الرحلة الجوية في المركبة الهوائية. ج: 2	جول غابرييل فيرن، ترجمة: يوسف اليان سركيس
80	مذكرات دجاجة	إسحق موسى الحسيني
81	ماذا يقول غاندي عن اللاعنف والمقاومة والشجاعة؟	نورمان ج. فينكلستاين- ترجمة: أحمد زراقي
82	نشأة اللوحة المسندية في الوطن العربي	د. نزار شقرون
83	مِن سِيَرِ الأَبْطَال والعُظَمَاءِ القُدَماء	إس. إس. بيو - ترجمة: يعقوب صروف - فارس نمر
84	مقالاتٌ في الأدب العربيّ	إغناطيوس كراتشكوفسكي
85	سِرُّ النَّجَاح	صموئيل سمايلز - ترجمة: يَعقُوب صَرُّوف
86	مِنْ آثَارِ مُعَاوِيَة مُحَمَّد نُور	مُعَاوِيَة مُحَمَّد نُور
87	إنشَاءُ المُكَاتَبَاتِ العَصْرِيَّة	أحمد الهاشمي
88	أجراس أكتوبر - مُخْتَارَاتٌ مِنَ الشِّعْرِ السُّوفْيِيتِّي	ترجمة: عبدالرحمن الخميسي وآخرين

من إصدارات سلسلة كتاب الدوحة

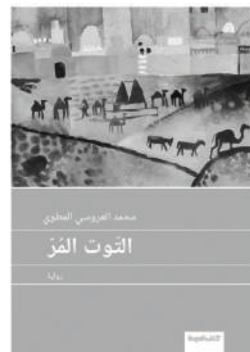












«جان دي لافونتين»، من أعظم شعراء ،فرنسا عاش في القرن السابع عشر، في زمن «لويس الرابع عشر»، معاصراً لـ«موليير»، «وراسين»، كتب عدداً كبيراً من الحكايات، نظمها شعراً، مستقياً الكثير منها من حكايات «إيسوب»، وكتاب «كليلة ودمنة»، وتابع نشرها طوال ما يزيد على ربع قرن من حياته، وشحن فيها من شاعريته، وفكاهته، ونقده اللاذع، وحسّه لأعراف عصره السياسية، والاجتماعية؛ ما جعل «الحكايات» من أعظم ما أنتجت اللغة الفرنسية. وقد بوّأته الحكايات مكاناً بين الخالدين في عالم الأدب، كما أنها غدت جزءاً أساسياً من ثقافة كلّ عصر.

في هذا الكتاب، اختار «جبرا إبراهيم جبرا» خمساً وخمسين حكاية، من أجمل مافي مجموعة «لافونتين» الكاملة، ونقَلَها بأسلوب متميِّز بإيقاعه، وسلاسته، وقدّم لها بدراسة مهمّة، استقصى فيها بعض جذورها الرافدينية العربية.

